العقيدة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة السابعة

طبعة مزيدة

١٤٣٣هـ-٢٠١٢ م

إبراهيم النعمة

العقيدة الإسلامية

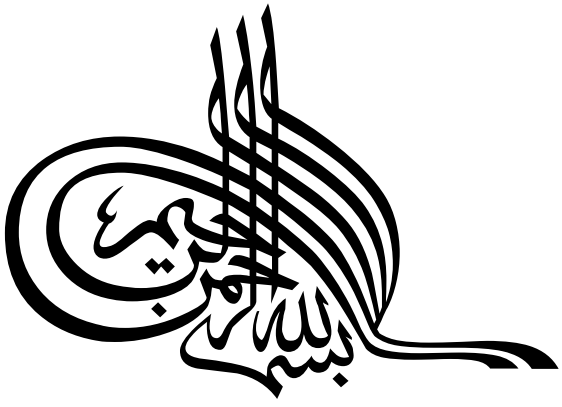
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً يبلِّغني رضاه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، وعلى سائر أنبيائه ورسله، وآله الطيبين، وصحبه المخلصين الصادقين، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين!

أما بعد:

فهذه كلمات قليلات، يتعرف من خلالها القارئ الكريم على العقيدة الإسلامية الصحيحة، النابعة من كتاب الله، وسنة رسولهﷺ، وما كان عليه الصحابة الكرام من عقيدة أثمرت ثمرات طيبةً بإذن الله. ذلك لأن الدعوة إلى ترسيخ العقيدة الصحيحة، هو أهم الأمور وآكد الواجبات؛ لأنّها تتعلق بمعرفة الله، والإيمان به، وملائكته، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وهي قاعدته الأولى التي تُبنى عليها قواعده الأخرى، وهي أساس هذا الدين الذي تُبنى عليه صحة الأعمال وقبولها، فلا يُقبل عمل ما لم تكن عقيدة صاحبها في الله صحيحة سليمة.

وعقيدتنا -نحن أهل السنة والجماعة- واضحة ليس فيها غموض، بينة ليس فيها خفاء، و(ثابتة محددة لا تقبل الزيادة ولا النقصان، ولا التحريف والتبديل، فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجامع العلمية، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية أن يضيف إليها، أو يُحوّر فيها، وكل إضافة أو تحوير مردودة على صاحبها)[1].

---

(١) الإيمان والحياة، تأليف يوسف القرضاوي، ص٣٩، الطبعة السادسة عشرة ١٤١٤-١٩٩٣، مؤسسة الرسالة، بيروت.

إنّ مما لا ريب فيه أنّ صلاح كل أمة ورقيها يتوقف على سلامة عقيدتها؛ لذلك نرى رسالات الأنبياء –عليهم السلام– أوّل ما نادت به: هو إصلاح العقيدة، فكان كل رسول يقول لقومه أول ما يدعوهم –كما حكى القرآن الكريم–:

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ سورة الأعراف/ ٥٩.

فلا نعجب إذا علمنا أن الآيات ظلت تنزل على رسول الله ﷺ في العهد المكي ما يقرب من ثلاثَ عشرةَ سنة، تُعرِّف الناس بالله، وبصفاته، وبالدار الآخرة، وتدعوهم إلى تنزيه الله عن أيِّ لونٍ كان من ألوان الشرك. وما ان استقرت العقيدة في القلوب، ورسخت في النفوس، حتى جاءت الأحكام التشريعية الكثيرة من الله تعالى متناولة جوانب الحياة. وكلما نزل حكم قال المسلمون –وقلوبهم مطمئنة–: سمعنا وأطعنا، من غير أن يجدوا في أنفسهم أي حرج كان. ولا ريب أنّ ذلك أثر من آثار رسوخ العقيدة الإسلامية في القلوب.

وهذا العلم الذي يسمى بـ(علم العقائد): هو أصل الإسلام كله، ومنزلته كمنزلة الروح من الجسد، وهو أفضل العلوم وأشرفها، بل هو روح الإسلام وجوهره، وموضوعاته تدور حول أهم ما يتعلق بالإنسان. والجهل بهذا العلم يؤدي إلى العمى. قال الله تعالى:

﴿۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ سورة الرعد.

فإذا تعلمتَ -أخي المسلم- هذا العلمَ وغيره من العلوم وانتفعت بها،

فإن عليك أن تُعَلِّمَ غيرَك. وبهذا تنضوي تحت لواء الدعاة إلى الله، الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة فصلت.

وهذه الشذرات التي بين يديك -عزيزي القارئ- حاولتُ كتابتها بأسلوب واضح لا تعقيد فيه ولا غموض؛ ليسهل على الناس فهمها، مبتعداً عن الفلسفات التي أُقْحِمتْ في كتب العقيدة، حتى ظنها الناس منها وما هي من العقيدة في شيء.

وقد اقتبست من كتابي (إيماننا الحق بين النظر والدليل) ما تمس الحاجة إليه، ووضعته هنا ليكونَ الناس على بينة من أمر ضروريات عقيدتهم ... وأشير هنا إلى أنّي رجعت في هذا الكتاب إلى أكثر من نسخة مما استشهدت به من المصادر والمراجع، وبخاصة في صحيحي البخاري ومسلم لأنّ المصادر التي اعتمدتها في الموصل لم تكن متوافرة لي في بغداد أو عمّان، فقد كنت كثير التنقل بين هذه المدن سائلاً المولى الكريم أن يتقبله مني القبول الحسن، وينفعَ بهذه الكلمات كل من يقرؤها، مؤمِّلاً أنْ لا ينساني القارئ من الدعاء لي ولوالديَّ وللمسلمين.

علم التوحيد

أو العقيدة الإسلامية

يبحث علم التوحيد في إثبات العقيدة الإسلامية بالأدلة اليقينية: النقلية والعقلية. فهو يبحث في الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

والتوحيد عقيدة فطرية، أما الوثنيات، فهي أمراض طارئة. قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«... وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِّلْ به سلطانا»[1].

وأصل كلمة العقيدة في اللغة من العقد. والمراد به: التوثيق والربط، تقول: عقد الحبل: أي شد بعضه ببعض حتى يصعب قطعه. ونجد في معنى العقيدة وصفين هما: الصدق، ثم الشدُّ والصلابة.

والعقيدة في الاصطلاح: هو التصديق الجازم بالشيء من غير أي شك كان أو ريب.

أسماء علم العقيدة:

تعددت أسماء هذا العلم على ما يأتي:

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب: الصفات التي يُعَرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار).

١- الفقه الأكبر: لأنه أفضل العلوم، فكأنه هو الأصل وما عداه فرع. وهناك كتاب بهذا الاسم يُنسب إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله، وشكك عدد من العلماء في نسبة الكتاب إليه.

٢- علم الكلام: سُمي بهذا لأسباب عديدة منها:

أ- لأنّ أهم مسائله مسألة كلام الله تعالى: أأزلي هو أم مخلوق حادث؟ فسمي بأهم مسألة فيه. والمعتزلة هم الذين سمّوه بعلم الكلام.

ب- لأنّ هذا العلم فيه مناظرات العقائد، ولا يرجع إلى عمل.

ج- لأنّ عناوين أبواب هذا العلم كانت بـ(الكلام في كذا).

د- لأنّه يتضمن أدلة قوية، فكأنه صار هو الكلام دون سواه.

ه- قال الدكتور عرفان عبد الحميد: (ولعلّ أوجه الأسباب في تسميته بالكلام أنّ أصحابه تكلموا حيث كان السلف يسكت فيما تكلموا فيه)[1].

٣- أصول الدين: لأنّه يتعلق بالنظر في أصل الإيمان بالله وأركانه، وهو يقابل علم الفقه المتعلق بالفروع العملية للشريعة.

٤- علم العقيدة: لأنّ القلب ينعقد على الإيمان بها انعقادا مؤكدا.

٥- علم التوحيد: لأنّه يُعنى بوحدانية الله تعالى. وجعل هذا الاسم علما على هذا العلم تسمية له بأهم مباحثه: وهو توحيد الله تعالى.

---

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، تأليف الدكتور: عرفان عبد الحميد، ص١٢٣، الطبعة الأولى ١٣٨٧-١٩٦٧، مطبعة الإرشاد، بغداد.

٦- الإيمان: وهي تسمية السلف الصالح لما يتعلق بعلم التوحيد، أخذا من حديث جبريل عليه السلام للنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان...[1].

متى ظهر مصطلح العقيدة:

لم يُعرف مصطلح (العقيدة) في القرون الأربعة الأولى، بل عُرف بعد ذلك، وأوّل من استعمل هذا المصطلح: الإمام أبو عثمان إسماعيل الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩هـ في كتابه (عقيدة السلف وأصحاب الحديث)، وقد انتشر هذا المصطلح وذاع -فيما بعد- على ألسنة العلماء، ولا مشاحة في الاصطلاح كما يقولون.

---

(١) عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فاسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أماراتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان) حديث ٩٣، ص٢٥.

موضوع علم العقيدة:

موضوع هذا العلم في أركان الإيمان الستة:

١- الإيمان بالله وتوحيده.

٢- الإيمان بالملائكة وأعمالهم في الدنيا والآخرة.

٣- الإيمان بكتب الله التي أنزلها الله على رسله لهداية البشر.

٤- الإيمان برسل الله الذين اصطفاهم من خلقه لتبليغ شرعه الشريف إلى الناس.

٥- الإيمان باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه الناس على ما أقدموا عليه من عقيدة وعمل، فيثيب الطائع لله بالجنة، ويعاقب العاصي بالنار.

٦- الإيمان بما قدّره الله على الناس بعلمه الأزلي.

والدليل على وجوب الإيمان بالأركان الخمسة الأولى قوله تعالى:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ سورة البقرة.

أمّا ركن الإيمان بالقضاء والقدر، فقد ورد في آيات كريمة، منها قوله تعالى:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الحديد.

وبينها رسول الله ﷺ في حديث جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان...

«وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

وحديث النبيﷺ لابن عباس:

«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[2].

ماذا يبحث علم التوحيد:

يبحث علم التوحيد في إثبات العقيدة الإسلامية بالأدلة اليقينية: النقلية والعقلية. والتوحيد عقيدة فطرية، أمّا الوثنيات، فهي أمراض طارئة، قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«...وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا...»[3].

عقيدتنا بين الكتاب والسنة والفلسفة:

تلقى الصحابةرضي الله عنهم عقيدتهم من كتاب الله وسنة رسولهﷺ، وكانت عقيدة كل واحد منهم صافية كل الصفاء، خالية من أي شيء كان من الشوائب، لم يعلق بها شيء من الفلسفات اليونانية والرومانية...وقد آتت تلك العقيدة

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان) حديث ٩٣، ص٢٥.

(٢) رواه الترمذي بإسناد صحيح في كتاب صفة يوم القيامة (باب: ٥٩) حديث ٢٥١٦.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب: الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) حديث ٧٢٠٧، ص١٢٤١.

ثمراتها المباركة في تلك الكوكبة من الصحابة؛ فكانوا قرة عين الدنيا في كل جانب من الجوانب التربوية والدعوية والجهادية، فلم يفهموا الإيمان على أنّه كلمات تلوكها ألسنتهم فقط، بل كان يقينا ظهرت آثاره في كل جانب من جوانب حياتهم. وبعد أن انتقل النبيﷺ إلى جوار ربه، وفتحت بلاد كثيرة وانضوت تحت لواء الإسلام، ودخلت أعداد من الفرس والروم في الإسلام، كان هؤلاء قد حملوا معهم ما ورثوه من فلسفاتهم الدينية. وهناك من أصحاب تلك الفلسفات من أراد تشويه عقيدة الإسلام، فأثار شبهات حول العقيدة الإسلامية، فانبرى لهم العلماء فدرسوا تلك الفلسفات، وصاروا يردون عليهم بأسلوبهم الفلسفي نفسه؛ فنشأ علم الكلام بعيدا عن القرآن والسنة، وبعيدا عن البيئة التي بُعث بها النبيﷺ، وكان رد العلماء على هؤلاء –إذ ذاك– في مكانه المناسب.ولكنّ الذي وقع -وكان خطأً فادحا- هو استمرار العلماء في كتابة العقيدة على هذا النهج بعد أن ذهبت تلك الفلسفات ولم يعد لها شأن يُذكر.

منهجان في دراسة العقيدة الإسلامية:

هناك منهجان في دراسة العقيدة الإسلامية: أحدهما: منهج القرآن الكريم، والثاني: منهج المتكلمين. وكل منهج من هذين المنهجين له طريقته في الحديث عن العقيدة الإسلامية.

١- منهج القرآن الكريم: الناس كلهم مفطورون على الإيمان بوجود إله خلق هذا الكون وهو يسيّره، يستوي في ذلك من يعايشون حياة البداوة أو الحضارة، وخاطب القرآن الناس بما ينمي فطرتهم هذه ويقويها ويصلح ما

أصابها من فساد الإشراك وانحراف في تصور الخالق سبحانه. يحدثنا القرآن الكريم أنّ الله تعالى هو الذي خلق الكون كله، وهو الذي يهب الحياة، وهو الذي وضع لهذا الكون سننا لا تتخلف ولا تتبدل، قال تعالى:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ سورة يس.

إنّ الله تعالى هو الذي يستطيع أن يخلق ولا يستطيع ذلك غيره ولو كان ذبابا قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ سورة الحج.

وتكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى التفكر في كل ما حوله، ومنها خلق الإنسان قال تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا

﴿فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ سورة عبس.

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تحض على التفكر في خلق الله، التي تثبت علم الله وقدرته ووحدانيته. وهو أسلوب ينتفع منه الناس العامة والمثقفون على حد سواء. فلم يسلك القرآن في أسلوبه مسلك علماء المنطق حيث يأتون بمقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة، كما لم يسلك القرآن مسلك الفلاسفة في حديثهم عن الجوهر والعرض وكنههما لأنّ القرآن لم يأت لعلماء المنطق وحدهم، ولا إلى الفلاسفة وحدهم، بل جاء إلى الناس جميعا. ولو استعمل القرآن أسلوب المناطقة والفلاسفة لما آمن بالإسلام إلا قليل.

٢- طريقة المتكلمين: يختلف منهج المتكلمين عن منهج القرآن في أمر العقيدة. فإنّ منهج المتكلمين يقوم على إثبات البراهين العقلية، والنظر في أمر العقيدة مستخدمين علم المنطق في ذلك، وقد عمدوا إلى صفات اللهﷻ فأولوها، وقد كان التأويل من أهم ما امتازت به طريقتهم. ولا ريب أنّ الإنسان حين يعطي عقله كل شيء في قضايا غيبية، فلابد أن يحدث اختلاف كثير في فهم قسم من مسائل العقيدة، فقد يُثبت أحدهم شيئا ويُثبت غيره عكس ذلك.

لقد نهج المتكلمون هذا النهج بعد أن دخل أقوام من فارس والروم في الإسلام يحملون معهم عقابيل عقيدتهم التي كانوا يعتقدونها من قبل، فوق الحوار الذي كان يجري بين علماء المسلمين من جانب، وعلماء النصارى من جانب واليهود والوثنية من جانب آخر، فقد اضطر المسلمون إلى دراسة المنطق

والفلسفة ليردوا على هؤلاء وأولئك؛ إذ غير المسلمين لا يقتنعون بآية تتلى عليهم، ولا بحديث صحيح يُقرأ عليهم، فلابد إذن من الرجوع إلى الفلسفة والمنطق في ضوء العقل، وهكذا كان فتكون منهج المتكلمين في العقيدة الإسلامية.

هذان منهجان في دراسة العقيدة الإسلامية، ولكن أيهما أقرب إلى الصواب والأقرب إلى السلامة؟

مما لا ريب فيه أنّ المنهج القرآني هو الأكثر صوابا، والأقرب إلى سلامة العقيدة، والأحكم في الحكم على الأشياء، فهو الأصل الأصيل الذي ربى النبيﷺ صحابته عليه. وما أروع ما قاله العلامة ابن خلدون:

(...واتبع ما أمرك الشارع به في اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك. وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال)[1].

حكمه:

إنّ تعلم القدر الضروري من علم التوحيد فرض عين على كل مسلم

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٩٦، اعتنى به: هيثم جمعة هلال، الطبعة الأولى ١٤٢٨-٢٠٠٧، مؤسسة المعارف، بيروت.

ومسلمة؛ ليكون مقتنعا كل الاقتناع بأركان الإيمان وبأنّ الإسلام هو الدين الحق الذي لا يرتضي الله للناس دينا سواه بعد بعثة محمدﷺ. ولا يؤخذ هذا العلم إلا من كتاب الله، ومن الأحاديث الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول. وقد عزّ المسلمون وسادوا وانتصروا يوم كانت عقيدتهم بالله صحيحة، وأصابهم ما أصابهم من الضعف والذلة والهوان، واستيلاء المستعمرين على بلادهم يوم ضعفت عقيدة التوحيد فيهم. ولقد رأيت عددا ليس بالقليل من الكتب التي أُلفت في العقيدة الإسلامية قد ابتعدت عن منهج القرآن الكريم في عرضها، وعن منهج النبيﷺ، وربما كان ذلك بسبب تأثّر قسم من مؤلفيها بالفلسفات الوافدة التي تُرجمت إلى اللغة العربية أولا، ولاجتهاد قسم من المؤلفين في فهم نصوص القرآن والسنة ثانيا، ولأنّ أكثر تلك الكتب أُلفت كانت في الرد على المخالفين بعد ذلك.

الإسلام

في العالم اليوم ديانات كثيرة. وقد نُسِبَتْ كل واحدة منها: إما إلى رجل معيَّن، أو إلى أُمة، فالمسيحية أَخَذَت اسمها من السيد المسيح عليه السلام، والبوذية سميت باسم بانيها (بوذا)، واليهودية باسم قبيلة تُعرَف بـ(يهوذا) ...

أما الإسلام، فإنه لا يُنسب إلى رجل معين، ولا إلى أُمة، ولكن يدل على صفة يتضمنها هذا الدين، وهو: الإسلام لله في كل أمر ونهي. وهذا يعني أن الإسلام ما أوجده أحد من البشر، ولا من غيره من المخلوقات، وليس هو خاصا بأُمة دون سائر الأُمم، بل هو للناس جميعاً إلى أن تقوم الساعة. ومعناه: الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض. ولم تكن تسمية (الإسلام) قد جاءت اجتهاداً من الرسول ﷺ، وإنما جاءت من الله -تبارك وتعالى- قال الله عز وجل:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ سورة المائدة/ ٣.

وإذا كانت الأمة المحمدية قد أَخْتُصَّت بهذا الاسم، فلأنَّ الإسلام اسم للشريعة التي اشتملت على العبادات المختصة بهذه الأمة: من الغسل من الجنابة، وغير ذلك مما اخُتصَّتْ به هذه الأمة، ولم يُكتبْ على غيرها من الأُمم. ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى:

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ سورة الحج/ ٧٨.

ويدخل الإنسان في الإسلام حين يعتقد بقلبه اعتقاداً جازماً لا شكَّ فيه

ولا ريب: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويُقرُّ ذلك بلسانه. ولا يكون إسلامه كاملاً، حتى يقومَ بأركان الإسلام كلِّها. فإنْ أضاعها أو أضاع بعضَها صار فاسقاً عاصياً.

التوحيد دين الأنبياء والرسل جميعا:

أنبياء الله ورسله جاءوا جميعا بعقيدة التوحيد والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار، قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الأنبياء

وقال:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ سورة الشورى/ ١٣.

وهذه الآية صريحة في أنّ العقيدة الإسلامية التي جاء بها نبينا محمدﷺ من ربه، هي العقيدة نفسها التي جاء بها أنبياء الله ورسله كلهم، وشرعها الله للأمم السابقة كلها، وقد خصّ الله في هذه الآية بالذكر الرسل أولي العزم، ابتداءاً من نوحعليه السلام، وانتهاءاً بسيدنا محمدﷺ؛ لمكانتهم الكبرى، وفضلهم وإمامتهم.

شرائع الأنبياء والرسل متغيّرة:

وإذا كانت عقيدة كل نبي من أنبياء الله ورسول من رسله ثابتة لا تتغيّر، فإنّ الشرائع تختلف من رسول إلى رسول آخر، وقد قال الله تعالى:

﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾ سورة المائدة/ ٤٨.

وبيّن ذلك رسول اللهﷺ خير بيان فقال:

«الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[1].

وسبب اختلاف الشرائع: اختلاف الناس في كل مجتمع من المجتمعات في المشكلات التي يُعانون منها؛ فيرسل الله لكل أمة شريعة تناسبها؛ ذلك لأنّ الشريعة التي تصلح لقوم قد لا يصلح بعضها لقوم آخرين. وما مَثَلُ الشرائع -ولله المثل الأعلى- إلاّ كمثل المنهاج الدراسي في المدارس: فإن لكل مرحلة من مراحل الدراسة منهاجها الخاص بها. فالذي يصل في دراسته إلى آخر مرحلة من مراحل الدراسات العليا -مثلاً- تكون له القابلية على استيعاب ما يُلقى إليه من أمور أكثر من استيعاب غيره من المراحل ... وهكذا الأمر في إرسال الرسل والأنبياء. فلم يجعل الله شريعة نبيٍّ من الأنبياء -قبل شريعة محمدﷺ- خالدة باقية إلى قيام الساعة؛ لأن تلك الأمم لا تستطيع أن تحمل الرسالة الخالدة الأبدية. ولكن حينما وصلت البشرية إلى أول النضوج العقلي، أرسل الله خاتم الأنبياء والمرسلين محمداًﷺ بهذه الشريعة الخاتمة، الصالحة للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان.

---

(١) العلات: الضرائر. ومعنى الحديث: إنّ أصل دين الأنبياء واحد وهو التوحيد منذ أول نبي إلى آخر نبي، وإن كانت شرائعهم مختلفة. والحديث أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (باب: فضائل عيسىعليه السلام) ٤/ ١٨٣٧.

الإيمان بالله

أول واجب على الإنسان أن يعرف خالقه؛ لأنه إن لم يعرف ذلك لا يستطيع أن يتبع هدى الله الذي يسعده في الدنيا والآخرة. فما المراد بالإيمان بالله؟

الإيمان بالله: هو التصديق القاطع الجازم بوجود الله، والإذعان القلبي لما جاء به. واطمئنان القلب إلى ذلك اطمئناناً يترك آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله واجتناب نواهيه. وهو أهم ركن من أركان الإيمان، والأركان الأخرى تابعة له ومضافة إليه. ويتضمن الإيمان بالله: الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. ويتضمن: الإيمان بوجوده تعالى ووحدانيته.

وجود الله قضية فطرية:

يشعر الإنسان في قرارة نفسه شعوراً لا يخالطه أي شك كان: أنَّ هذا العالم –كله– بما يحويه من كائنات عاقلة وغير عاقلة، تسيِّره قوة عظيمة خفية على وفق علم وحكمة. وهذا الشعور عام شامل، لا يتقيد بزمان ولا يحده مكان. ولا يهمنا -بعد ذلك– إنْ تمكَّنَ من إقامة الأدلة والبراهين على شعوره هذا أم لم يستطع. فكم من قضايا يحس بها الإنسان ولا يستطيع أن يقيم الأدلة على وجودها بحواسه المادية! فهو يحسُّ بوجود (الروح) فيه، لكنه لا يستطيع أن يقيم الأدلة المادية على وجودها. ويحس بالحب والبغض، والفرح والألم، ولا يستطيع بحواسه المادية أن يقيم الأدلة على وجودها كذلك. وليست قضية الفطرة في أمر وجود الله مما اختص بها المسلمون وحدهم، بل إنّ كل إنسان يشعر بذلك، يقول الدكتور ثوماس كارليل:

(إنّ الذين يريدون إثبات وجود الله بالبرهان والدليل ما هم إلا كالـذي يريد الاستدلال على وجود الشمس الساطعة الوهاجة بالفانوس)[1].

حول فساد الفطرة:

يولد الإنسان على الفطرة السليمة وهي التوحيد، ولكن قد تحيط به مؤثرات تُفسد فطرته فلا يتجه إلى عقيدة التوحيد، ولا يتجه إلى الله المستحق للعبادة وحده. ومن أسباب فساد الفطرة: ما يلقيه الآباء والأمهات، والمعلمون والمعلمات، والباحثون والباحثات من أفكار وقضايا تفسد تلك الفطرة، وما مثل فساد الفطرة إلا كمثل الإنسان السوي الذي تصيبه بعض العاهات، فتفقده السمع والبصر..! وهذه القضية قد نصّ عليها رسول اللهﷺ فقال:

«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[2].

وقال الله تعالى في الحديث القدسي:

«...وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا...»[3].

وفُسّرت الفطرة هذه بفطرة التوحيد؛ إذ التوحيد مما جُبل عليه الإنسان،

---

(١) العقيدة الإسلامية للدكتور محمود سالم عبيدات، ص١٥٥-١٥٦، دار الفرقان، عمّان، الأردن.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز (باب: ما قيل في أولاد المشركين) حديث ١٣٨٥، ص٢٢٢، ومسلم في كتاب القدر (باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة) حديث ٦٧٥٥، ص١١٥٧.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب: الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) حديث ٧٢٠٧، ص١٢٤١.

وحتى بعد فساد الفطرة، فإنّ الإنسان حين يقع في مأزق شديد، ويعلم أنّ أي إنسان كان لا يقدر على تخليصه مما ألم به، تعود إليه فطرته فيتجه بدعائه إلى الله وحده ليخلصه من شدته الشديدة. ويصوّر القرآن الحكيم هذه القضية فيقول الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة يونس.

وقد أدرك هذه القضية غير المسلمين، حتى قال (برودن):

(إنّ ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكتشفه عقولنا)[1].

يتضح من هذا أنّ الإنسان لو ترك وشأنه من غير أن يُفسد أحد فطرته لم ينشأ إلا مؤمنا بوجود الله، شاعرا بحاجته إليه، وبخاصة عند الشدائد.

بين الفطرة السليمة والشرائع والعبادات الإلهية:

المراد بالفطرة السليمة: الاعتقاد بعقيدة التوحيد: فيستطيع الإنسان بفطرته السليمة أن يعتقد عقيدة التوحيد، وأمّا بالنسبة للشرائع والعبادات الإلهية، فلا يستطيع أن يدرك ذلك وحده، فلابد من وجود رسول يعلمه ذلك. ومن هنا جاء الوعيد من رب العالمين على المشرك بعدم مغفرة الله له، وجاء الوعد منه تعالى للموحد الذي مات على التوحيد بأن لا يُعذّبه الله. وذهب من

(١) العقيدة الإسلامية للدكتور: محمود سالم عبيدات، ص١٥٧.

العلماء من ذهب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ سورة الإسراء إلى أنّ المراد بهؤلاء: من لم تصلهم الرسالة على الشرائع والعبادات وليس على التوحيد. يقول الدكتور فاروق أحمد دسوقي:

(المشرك الذي لم تبلغه رسالة الإسلام يخلد في النار ليس على تركه العبادات والشرائع، فهذه لا يحاسب عليها، وإنما على تبديله فطرته ومخالفته للحنيفية التي خلقه الله عليها، وانتقاله من عقيدة التوحيد الفطرية إلى الشرك)[1].

عالم الغيب والشهادة:

في هذا الكون أشياء كثيرة ندركها بحواسنا تُسمّى (عالم الشهادة)، وسُميت بهذا لأنّ الإنسان يشهدها شهودا حسيّا، ويصل الإنسان إلى إدراكها ومعرفتها عن طريق التفكر والتجربة والمشاهدة وغير ذلك، وهناك أمور أخرى لا تتصل بحواسنا وهي غائبة عنّا تُسمّى (عالم الغيب). وانقسام العالم على قسمين: عالم الغيب وعالم الشهادة هو ما أشار إليه القرآن الكريم قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ سورة الحشر.

وقال:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ

(١) محاضرات في العقيدة الإسلامية، تأليف الدكتور: فاروق أحمد دسوقي، ص٣٢، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر.

﴿عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ سورة الرعد. والحديث عن عالم الشهادة معروف لا حاجة بنا إلى ذكره والتدليل عليه، ولكن ماذا عن الإيمان بالغيب.

الإيمان بالغيب:

الإنسان إذا لم يعرف شيئاً يحاول أن يعرفه عمن يعرفه، ثم يأخذ بقوله: فإذا مرض بحث عن طبيب ماهر حاذق مشهود له بالعلم الغزير، وذلك لثقته العالية بما يملكه الطبيب من براعة وخبره ... وهكذا كل أمر من أمور الدنيا. فإذا كان الحال هكذا بالنسبة إلى العلوم الدنيوية، فإن علوم الآخرة تؤخذ -أيضاً- ممن أحاطوا بها علماً، وعرفوا من أحوالها ما لم يعرفه الناس الآخرون. فنحن لا نعرف عن ذات الله وصفاته، ولا عن الحياة الآخرة، لكننا نستطيع أن نعرفها عن طريق نبي أو رسول نعرف صدقه وأمانته في أقواله وأفعاله كلها، وتقوم الأدلة على ذلك، فتطمئن قلوبنا إلى أنه لا يقول إلا الحق. هذا الإنسان الذي خَبَرْنا صدقَه وأمانته: هو نبيٌّ من أنبياء الله، أو رسولٌ من رسله، يقوم بتبليغ شرع الله إلى الناس، ودعوتهم إلى ما فيه خيرهم في دنياهم واخرتهم. هذا هو المراد بالغيب: أن يرجع الإنسان في معرفة ما لا يعرف إلى مَنْ يعرفُه، ثم يُصَدقُه بما يقول. فنحن لا نستطيع أن نتلقى العلمَ الصحيح عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره إلا عن طريق الأنبياء؛ إذ هؤلاء قد اجتباهم الله، وأطلعهم على شيء من الغيب جهلناه نحن وعرفوه هم، قال تعالى:

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ سورة الجن/ ٢٦ - ٢٧ .

هكذا صار الإيمان بالغيب قاعدة مهمة من قواعد الإيمان؛ إذ الحواس لا تستطيع إدراك كل موجود. فالروح موجودة فينا ولا ندرك حقيقتها: فلا نستطيع أن نلمسها ولا نراها ولا نسمعها ولا نذوقها ولا نشمها، ولا تستطيع عقولنا أن تعرف صورتها ... لذلك صار من أول صفات المؤمنين المتقين إيمانُهم بالغيب، قال تعالى:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ سورة البقرة.

وهذا العالم المغيب عن حواسنا يسمى عالم الغيب Metaphysique وهو ينقسم على قسمين:

١- قسم قابل لأن يكونَ من عالم الشهادة، وذلك حين تتهيأ للإنسان شروطُ مشاهدته. فلو استطاع الإنسان بالبحث العلميّ أن يصل إلى كوكب سماويّ بعيدٍ عنا، لأصبح أمر هذا الكوكب من عالم الشهادة لا الغيب.

٢- قسم غير قابل لأن يكون من عالم الشهادة، فلا يستطيعُ البشرُ إدراكه؛ لأن الله قد تفرَّد بعلمه واستأثَرَ به، فلم يُطلعْ عليه أحدا في الأرض ولا في السماء، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله:

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

﴿يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ سورة النمل.

وما وَرَدَ من الغيب في القرآن الكريم يجب الإيمانُ به ويُكفَّرُ جاحدُه، بل إنَّ أركان الإيمان كلها قائمة على الإيمان بالغيب. فمن لم يؤمن بالغيب لا نطالبه بالإيمان بالملائكة، ولا بأركان الإيمان الأخرى.

وليس الإيمان بالغيب مما اختصت به العقيدة الإسلامية وحدها، بل هو القاسم المشترك بين الديانات الإلهية كلها.

العقل والغيب:

للعقل أهميته الكبرى بالاستدلال على الأشياء والحكم عليها. بيد أنّ أحكامه واستدلاله يعتمد على ما تهديه إليه الحواس المادية. أمّا القضايا الغيبية، فلم تكن في متناول العقل. ولقد ضلّ كثير من الفلاسفة، وابتعدوا عن الوصول إلى الحقيقة التي سعوا للوصول إليها حين حكّموا عقولهم القاصرة في قضايا الغيب المطلق المتعلق بالله وصفاته، وبحقيقة الملائكة والجن، وأحوال يوم القيامة. ولا يظنن أحد أنّ في هذا تحجيما للعقل، ولكن لأنّ العقل له حدود لا يستطيع أن يتجاوزها. يقول ابن خلدون:

(العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال. ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدلك. على أن الميزان

في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره)[1].

يتضح من هذا أنّ العقل الذي يستدل به الإنسان على الأشياء المادية ليست كل شيء في هذا الوجود، فهناك الكثير الكثير من القضايا الغيبية لا يدركها الإنسان بعقله المجرد.

حدوث الكون ووجود الله:

هناك قاعدة تقول: (لكل حادث محدث)، وهي قضية يقينية لا يجادل فيها إنسان عاقل؛ إذ إنَّ أي حادث كان لا يستطيع أن يوجد نفسه. ويذكرني هذا بذلك الأعرابي الذي ظل محافظاً على فطرته السليمة من الفساد وقد سئل: كيف عرفت ربك؟ فأجاب: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير: فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!!

إننا ننظر في هذا الكون الواسع الرحيب، فنرى فيه نجوماً وأنهاراً وشمساً وقمراً وأشجاراً ... وهذه –كلها– قد أتت من أسباب، والأسباب قد أتت من أسباب، إلى أن نصل إلى السبب الأول الذي أوجَدَ هذه الكائنات كلها.

ونحب هنا أن نذكر: أن من القواعد الثابتة التي لا يجادل فيها إنسان عاقل (أنَّ فاقد الشيء لا يعطيه) فمن لا يملك ديناراً من الذهب لا يستطيع أن يعطي غيره دينار الذهب. وهذه الطبيعة الجامدة الصماء لا تملك شيئاً من علم، وليس لديها حكمة ولا إرادة، فكيف تستطيع أن توجد هذا الكون الواسع

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٩٦.

الذي يتسم بكل معاني الدقة والإتقان؟!

((الكائن المتعدد الخلايا -وفي قمته الإنسان- يكون في منشئه خلية واحدة ملقحة، ثم تظل تنقسم وتنمو حتى تصبح كائناً متكاملاً. فأي قدرة تمنحه الحياة والحركة والنشاط غير قدرة الله؟)).

((وإن أعجب ما في عملية الانقسام هذه: أن الخلايا تكون كلها متماثلة -لظاهر العين- في نشأتها الأولى، ثم يصدر إليها الأمر فتتخصص وتتشكل بشكل معين! فخلية تتجه إلى مكان معين وتصبح أذناً أو جزءاً من أذن، وخلية تتجه إلى مكان آخر فتصبح عيناً أو جزءاً من عين، وثالثة تصبح خلية من خلايا المخ، ورابعة تتحول إلى عظام، وهكذا. فأي أمر هذا الذي صدر إليها فأطاعته ونفذته بهذه الدقة العجيبة، وهي شيء لا يكاد يُرى بالعين؟ إنه أمر الله الخالق المبدع، يأمرها فتطيع، وتتحرك بمقتضى مشيئته -سبحانه- فتتكوّن كما أرادها الله، وتقوم بالدور الذي أراده لها الله))[1].

وعاد الملاحدة المكابرون ليقولوا: (إذا كان الدود قد جاء من دود سابق عن طريق البيض الصغير الذي لم نره، فإن الجراثيم التي تعفِّن الأطعمة وتفسدها قد جاءت من الطبيعة، ولم تولد من جراثيم سابقة. ولكن هذه الشبهة -أيضاً- دُحضت قبل أكثر من ثمانين عاماً، عندما أكتشف الباحثون طريقة يحفظون بها الطعام دون أن يتعفن: وذلك بعزل الطعام في علب محكمة، تُقتَلُ

(١) ركائز الإيمان، تأليف محمد قطب، ص ١٢، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا، الرياض.

فيها الجراثيم بالحرارة، أو الأشعة، وتُعزَلُ عن الهواء، حتى لا تأتيَ من مخلوقات سابقة، ولا تتولد من الطبيعة كما يزعم الجهلة من الملحدين)[1].

ومن مزاعم الملاحدة التي استدلوا بها على أنَّ الطبيعة هي التي تخلق المخلوقات قولهم: إن الدود يتكون من بقايا فضلات الإنسان والحيوان!! وقد ردَّ العلم الحديث زعمهم هذا، فكشف للناس أن هذا الدود قد جاء من بيض صغير جداً لا تراه العيون المجردة، لكن الإنسان استطاع أن يراها بالمجاهر؛ فعاد الملاحدة يجرُّون أذيال الخيبة والجهل!!

يزعم الملاحدة أن الطبيعة هي التي خلقت هذا الكون المتناسق البديع! ولو رأى هؤلاء قصراً مشيداً، قد حفَّتْ به البساتين من كل جانب، وانتشرت حوله من الأزهار والرياحين أزكاها وأعطرها ... ودخل هؤلاء القصر فبهرتهم روعتُه، وأخذ بألبابهم جمالُه: وجدوا غرفاته مهيأة منظمة: بعضها للطعام، وثانية للمنام، وأُخرى للضيافة ... ووجدوا فيه أثاثاً رائعة الجمال، قد وُضِعَ كل شيء في موضعه المناسب. فلو قيل لهؤلاء الملاحدة: إن أصواف الأغنام قد تطايرت بذاتها، والتحمت فيما بينها من غير أن يتدخل أحد في صنعها، فكوَّنت هذه الأنسجة الجميلة المطرزة، ثم انتقلت هذه الأنسجة بذاتها فمكثت في مكانها المناسب في هذا القصر، وتشققت أشجار الغابة بذاتها ألواحاً، وتركبت بذاتها -أيضاً- فكوَّنت لنا هذه الأبواب والمناضد والمقاعد، وقد أخذ هذا

(١) الإيمان تأليف عبد المجيد الزنداني ورفاقه، ص٥٧-٥٨، الطبعة الخامسة، ١٤٠٧-١٩٨٧، دار القلم/ دمشق.

الأثاث موضعه المناسب بذاته أيضاً ...!! أيصدِّق هؤلاء الملاحدة هذا القول، أم يعتبرونه (أضغاث أحلام) و (حديث خرافة)، ويعتبرون قائلة قد أصابه مسٌّ من الجنون؟!!

فإذا كان الأمر هكذا بالنسبة إلى هذا القصر المشيد، فما ظنك بهذا الكون الواسع العظيم الذي لا تحده حدود؟! وصدق الله العظيم القائل:

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ سورة الجاثية.

وقال تعالى:

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾سورة يونس/ ١٠١.

وهكذا تكثر الأدلة على وجود الله كثرة هائلة لا تحصى، ويكون عددها كعدد مخلوقات الله التي تحمل الأدلة بعد الأدلة على خالقها.

وإذا كان الملاحدة يروق لهم أن يتحدثوا باسم العلم، فلننظر ماذا يقول العلماء في قضية الخلق؟

قال عالم الأحياء والنبات (رسل تشارلز أرنست):

((إنني اعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها. وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض، تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإنني أؤمن

بوجود الله إيماناً راسخاً))[1].

وقال الدكتور (وتز) الكيماوي الفرنسي عميد كلية الطب بباريس، وعضو أكاديمية العلوم:

((إذا أحسست في حينٍ من الأحيان أن عقيدتي بالله قد تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها))[2].

وقال العالم الطبيعي (أوليفر وندل):

((كلما تقدمت العلوم، ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله))[3].

وقال العلامة الإنكليزي (هرشل) –وهو من أكابر علماء الفلك في العالم–:

((كلما اتسع نطاق العلم، ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حدّ لقدرته ولا نهاية. فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم: وهو صرح عظمة الله وحده))[4].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، مقال (الخلايا الحية تؤدي رسالتها).

(٢) العقائد الإسلامية، تأليف السيد سابق، ص ٥٠، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ، دار الكتاب العربي، القاهرة.

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ١١٧، الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق، بيروت.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين، تأليف محمد فريد وجدي، ١/ ٥٠٣.

وأقوال العلماء في هذه القضية كثيرة كثيرة. ونحن إذ ننقل قسماً منها لا نريد أن نقوّي إيماننا بالله بها؛ لأن كتاب الله يكفينا في ذلك، لكننا نستشهد بهذه الشهادات لنقول للذين فتنهم التقدم العلمي في هذا العصر: إنْ كنتم تريدون رأي العلم في وجود الله، فهؤلاء هم جهابذة العلم، وهذه شهاداتهم.

العليم الحكيم:

كل من يتأمل في هذه المخلوقات التي نراها أو نحسها في الأرض وفي السماء، نجد أن خَلْقَها كان بعلم وحكمة، قد أُعِدَّ بما يناسب أحوال الحياة التي سيعيش فيها الإنسان، والحيوان، والنبات، وسائر المخلوقات ...

فهذا الهواء الذي نتنفسه نأخذ منه (الأكسجين): وهو الهواء الصالح للاستنشاق، ونحوِّله إلى (ثاني أكسيد الكاربون): وهو الهواء الفاسد. ومع ذلك فإن نسبة الهواء الصالح يظل محافظاً على نسبته: فلا ينقص بكثرة الاستهلاك؛ لأن العليم الحكيم جعل استهلاك الهواء للنبات على عكس ما يستهلكه الإنسان، فالنبات يأخذ (ثاني أكسيد الكاربون) ويحوله إلى (الأوكسجين). وهكذا تبقى نسبة الهواء كما هي لا ينقص منها شيء. ألا يدل ذلك على أن الذي خلق هذا الخلق عليم حكيم؟! وصدق الله العظيم القائل:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ سورة القمر.

وننظر إلى السمك في الماء، فنراه يحتاج إلى الهواء ليتنفس؛ فأذاب العليم الحكيم الهواء مع قطرات المطر، وجعل للسمك جهازاً خاصاً يسمى (الخياشيم)، يستخلص به السمك الهواء المذاب بالماء. ألا يدل ذلك على أن

الذي خلق هذا الخلق عليم حكيم؟!

وننظر إلى ما خلقه الله في الإنسان: ننظر إلى (المخ)، فنراه مادة ضعيفة! فمن الذي حفظه بذلك القفص القوي من عظام الجمجمة؟!

ومن الذي حمى (العين) بعظام الحاجب والأنف والوجنة؟

ومن الذي حمى (القلب) و (الرئتين) بالقفص الصدري؟

إنه الله الذي أحسن كل شيء خلقه؟ وقدَّر كل شيء تقديراً.

إنك –أيها الإنسان– تستنشق الهواء في نومك ويقظتك من غير أن تعمل ذهنك في الاستنشاق. إنه لم يكلفك بهذه العملية. ولو كلَّفك بها لشق عليك ذلك. فإذا غلبك النوم انقطع عنك الهواء وفقدت الحياة. وصدق الله العظيم القائل:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الملك.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ سورة الزخرف.

الملاحدة ورؤية الله في الدنيا:

سلك الملاحدة سلوك بني إسرائيل الذين قالوا لسيدنا موسى عليه السلام كما حكى القرآن الكريم:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ سورة البقرة.

يطلب الملاحدة في قرننا الواحد والعشرين أن يروا الله بأم أعينهم، وهم

يؤمنون بوجود أشياء كثيرة من غير أن يروها. إنهم يؤمنون بوجود الجاذبية الأرضية، وبأمواج الإذاعة التي تأتي من أماكن بعيدة، ويؤمنون بوجود الهواء وإن لم يروا شيئاً من ذلك بأبصارهم، لكنهم رأوا آثارها فقالوا بوجودها. رأوا آثار الجاذبية وهي تجذب الأشياء إلى الأرض فقالوا بوجودها، وعلموا بآثار الأمواج التي ظهرت أصواتاً في المذياع فقالوا بوجودها، ورأوا آثار الهواء قد ظهرت بتحريك أغصان الأشجار وغيرها فقالوا بوجوده. وهذه الأشياء -وغيرها كثير- عجزت الأبصار عن رؤيتها، لكن العقل قال بوجودها. ولو تخلى الملاحدة عن استكبارهم لقالوا: إن هذا الكون بأرضه وسمائه، وشموسه ونجومه وأقماره، وهي تسير بطريقة هي قمة في الدقة والنظام، لتدل دلالة واضحة على وجود خالق لهذا الكون، لكنهم لا يستطيعون رؤيته؛ لأن نظر الإنسان ضعيف كليل.

التفكير في ذات الله:

التفكير في مخلوقات الله وعدم التفكير في ذات الله عصمة للإنسان من الانحراف والتردي في مهاوي التيه والضلال؛ إذ إن عقل الإنسان مخلوق، وهو قاصر قاصر، فكيف يستطيع أن يحيط علماً بحقيقة الخالق جلَّ جلاله؟!

وما مَثَلُ تفكُّرِ الإنسان في ذاتِ الله إلاَّ كمثل قوةِ الإبصار لدى الإنسان؛ فإنها محدودة بحدود. فهو يستطيع النظرَ بعينه المجردة إلى عدد من الكيلو مترات. أما المسافات البعيدة فلا يستطيع أن يبصرها بعينه المجردة مهما أُوتيَ من قوة الإبصار، وكذلك أمر الشم وغيره.

فكما أن نظر الإنسان محدودٌ فكذلك عقله؛ فإن له حدوداً لا يستطيع أن

يتجاوزها. والعقل قيد مشتق من (العقال): وهو الحبل الذي يقيَّدُ به الجمل.

ونحن حين نتأمل بعض الأحاديث، نرى أن الرسول ﷺ أراد أن يُبْعِدَ المسلمَ عن معالجة قضايا لم تتوافر له وسائلُ بحثها، ولا يستطيع عقلُه المقيَّدُ مهما كان راجحاً أن يعالجها. ويحق لنا أن نسأل:

ماذا عرفَ الإنسانُ من أسرار نفسه حتى يفكِّرَ في ذات الله؟!

وماذا عرف عن روحه التي تسري في جسده؟

وماذا عرف عن عقله الذي يفكِّرُ به؟

وماذا عرف من أسرار الكون حتى يفكرَ في ذات الله؟!

لقد بحث الإنسانُ طويلاً، وأضنى نفسَه جهداً ومشقة، ثم لم يتوصلْ إلى حقيقةٍ جوهريةٍ واحدة من حقائق الكون! إنه لا يعرف ذاتها، ولا يعرف جوهرها، ولا يعرفُ إلاَّ شيئاً من صفاتها ومظاهرها!

إن من أوضح قواعد المنطق أن الإنسان إذا عجز عن الصغير، فهو عن الكبير أكثر عجزاً. فكيف يتسنى لهذا المخلوق الضعيف المحدود الطاقة، أن يحيط علماً بحقيقة الخالق صانع هذا الكون ومدبر شؤونه؟!!

أيستطيع ذلك بعقله؟

أوَليسَ العقل قد قرر أن المحدود لا يستطيع أن يحيط بغير المحدود؟

على أن الإنسان ﷺ حين نُهي عن التفكير في ذات الله، فإنه لم يُرِدْ أن يحجر على تفكيره، أو يضع أحد عليه القيود، لكنه أراد أن يوفر للمسلم جهده لما ينفع من الأعمال؛ كيلا يتبدد سدىً ويؤدي إلى الضلال.

معنى الشهـادتـين

أشهـد أنْ لا إله إلاَّ الله،

وأشهـد أنَّ محمداً رسول الله

كلمتان حبيبتان إلى قلب كل مسلم، ويقوم عليهما الإسلام، وتميِّزان المسلم من الكافر. فهما أساسه وهما أول ما يَدْخُل بهما المرء في الإسلام، وأول واجب على المكلف يتحتم عليه أداؤه لهما؛ تصديقاً واعتقاداً ونطقاً، ويرددهما المسلم كلَّ يوم مرات ومرات. وهذه الكلمة العظيمة -كما يقول ابن قيم الجوزية-: (لأجلها نُصِبَتْ الموازين، ووُضِعَت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وأسست الملة، ولأجلها جردت السيوف للجهاد، وهي حق الله على جميع العباد)[1].

ومن نطق بهاتين الشهادتين نحكم بإسلامه، من غير أن نبحث في مدى صدق تلك الشهادة؛ إذ إن ذلك من شأن علاَّم الغيوب الذي يعلم السر وأخفى ...

ولكن ما معنى هاتين الشهادتين؟

معناهما: أقرُّ وأُصدق وأعترفُ أنه لا معبودَ بحق يستحق العبادة في هذا الوجود إلا الله. والمسلم حين يقول: (لا إله) ينفي الآلهة المزعومة كلها، ويثبت الألوهيةَ الحقَّةَ لله وحده حين يستثني قائلاً: (إلا الله). وهكذا يعلن المسلم البراءة من عبادة ما سوى الله، والتزامه بعبادة الله وحده، وذلك عهد يقطعه

---

(١) الولاء والبراء لمحمد سعيد القحطاني، ص٩.

المسلم على نفسه فيخضع لربه، ولا يحتكم لغير شرعه. فمن قال: (لا إله إلا الله) عارفاً معناها، عاملاً بمقتضاها فهو المسلم الحق، ومن قالها وعمل بمقتضاها ظاهراً من غير أن يعتقدها بقلبه فهو المنافق، ومن قالها بلسانه وخالف مدلولها فأشرك مع الله فهو المشرك –ولو قالها مرات ومرات–. ويدل على ذلك جواب الحسن البصري لَمَّا قيل له: إن ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة؛ فقال: مَنْ قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال (وهب بن منبه) لمن سأله: أليس (لا إله إلاَّ الله) مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلاَّ وله أسنان.

وأما الشهادة الثانية، فمعناها: أقرُّ وأصدق وأعترف أن محمدا ﷺ هو رسول الله فنصدقه بكل ما أخبر، ونطيعه في كل أمر ونهي، ونقر أنه بلَّغَ الرسالة وأدَّى الأمانة. ولا يكون العبد مسلما بـ(لا إله إلا الله) إلا إذا أقر بها بشهادة أنّ محمدا رسول الله.

ومما يستلزمه التصديقُ برسالة الرسول ﷺ: الإيمانُ بكل ما أخبرَ به عن وجود الله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. ومقتضى هذه الشهادة: أن لا نعبد الله إلاَّ بما شَرع، وأن نعتقد أنَّ رسولَ الله ﷺ بشر لا يستطيع أن يُصَرِّفَ من أمر الكون شيئاً.

ولقد ورد في فضل الشهادتين أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ:

«مَنْ قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»[1].

والمراد بالمخلص: من يعمل ويدعو إليها؛ إذ فيها توحيدُ الله لأنّ أركان الإسلام –كلها– من لوازم الإقرار بالشهادتين. ويدل على ذلك أن الرسولﷺ بقي ما يقرب من ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو الناس إلى النطق بالشهادتين، ويقف المشركون منه موقف المعرض المعاند الذي يأبى أن ينطق بهما؛ إذ علم هؤلاء أنَّ الرسول الكريم لم يطالبهم بالنطق بالشهادتين من غير أن يعملوا بمستلزمات هذا النطق. ولو كان المطلوب منهم التلفظ بالشهادتين فقط، لسارع أكثر الناس –إن لم نقل كلهم– بالتلفظ بهما.

فكما أن المصاب بمرض لا يُشفى بمجرد ترداد لسانه لاسم ذلك الدواء الذي يشفيه من غير أن يتناوله تناولاً صحيحاً، فكذلك شهادتا أن (لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله) لا تنفع من ينطق بهما ما لم ينزل معناهما في سويداء قلبه، مقراً موقناً بصدقهما، عاملاً بمقتضاهما.

شروط كلمة الشهادة:

وكلمة الشهادة لها شروط يجب أن تتحقق وهي:

١- العلم بمعناها نفياً وإثباتاً. فمن تلفظ بها من غير أن يدرك معناها لا تنفعه. قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ سورة محمد/ ١٩.

٢- أن يكون قلب قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة من غير شك. قال

(١) رواه الإمام أحمد وابن حبان وأبو نعيم بأسانيد صحيحة. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، حديث ٢٣٥٥، ٥/ ٤٧٠-٤٧١.

الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ سورة الحجرات. فاشترط هنا في صدق الإيمان ألا يرتابوا أي: ألا يشكّوا.

٣- أن ينقاد قائلها ويستسلم لما اقتضته هذه الكلمة بلسانه وقلبه. قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ سورة النساء.

٤- أن تكون نية قائلها خالصة من أيةَ شائبةٍ كانت من شوائب الشرك والرياء. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ سورة البينة.

٥- محبة هذه الكلمة. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ سورة البقرة/ ١٦٥.

ولابد أن نشير هنا إلى أنّ الذي يقول (لا إله إلا الله) لابد أن يؤدي حقها وفرضها ليدخل الجنة كما ذُكر آنفا.

توحيد العبادة:

العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، والمسلم يكرر في صلاته كل يوم وليلة مرات كثيرة قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ سورة الفاتحة.

أي نخصك بالعبادة والاستعانة والدعاء وحدك دون سواك. وهذه الآية الكريمة هـي خلاصة سورة الفاتحة، والفاتحة هي خلاصة القرآن كله. وعبادة الله تعمُّ العبادات كلها مثل: الصلاة، والذبح، والنذر، والدعاء؛ فلا يكون ذلك إلا لله وحده. والرسول ﷺ يقول: (الدعاء هو العبادة)[1]. فكما أن الصلاة لا تجوز إلا لله وحده، فكذلك الدعاء لا يجوز إلا من الله وحده: فلا يجوز من رسول ولا من أي إمام من الأئمة ولا من وليّ من الأولياء لأنه عبادة، والله تعالى يأمر رسولهﷺ فيقول:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة الجن.

والله تعالى يستحق العبادة وحده؛ لأنه هو الذي خلق ما في هذا الكون كله: فهو موجده من العدم ومالكه، قال تعالى:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة فاطر..

الاستعانة بالله وحده:

من أحاديث رسول اللهﷺ قوله:

---

(١) رواه الإمام أحمـد في مسنده، وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان في صحيحه. أنظر: فيض القدير للمناوي ٣/ ٥٤٠.

«... إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله...»[1]

أي إذا طلبتَ الإعانة على أمرٍ من أمور الدنيا والآخرة، فأستعن بالله وحده: فهو الذي يقدر؛ إذ بيده كل شيء قال تعالى:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾سورة الأنعام/ ١٧.

وهذا لا يعني حرمة الاستعانة بالأحياء فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا، فإن ذلك جائز لقول الله تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾سورة المائدة/ ٢.

وقول رسول الله ﷺ:

«والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[2].

ولكنَّ الاستعانة المحرمة: أن يستعين المسلم بغير الله: كالأولياء الأموات أو الأحياء الغائبين أو الأئمة؛ فإن هؤلاء لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضَرّاً. وهذا الحسن البصري يكتب إلى عمر بن عبد العزيز:

(لا تستعن بغير الله فيكلَكَ الله إليه. ومن كلام بعض السلف: يا رب عجبتُ لمن يعرفك كيف يرجو غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعينُ

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة (باب: حديث حنظلة) رقم ٢٥١٦ ص٥٧٢، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم في الدعوات / باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث ٦٨٥٣ ص١١٧٣.

بغيرك)[1].

وما أروع ما قرره الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمة الله عليه في كتابه (الفتح الرباني) إنه يقول:

(سَلُوا الله ولا تسألوا غيره. استعينوا بالله ولا تستعينوا بغيره. ويحك بأيِّ وجْهٍ تلقاه غداً وأنت تنازعه في الدنيا، معرِض عنه، مُقْبِل على خلقه، مشرك به، تُنْزِلُ حوائجك بهم، وتتكل بالمهمات عليهم. ارفعوا الوسائط بينكم وبين الله، فإنَّ وقوفكم معها هَوَس، لا ملكَ ولا سلطان، ولا غنىً ولا عزَّ إلاَّ للحق ﷻ. كن مع الحق بلا خلق)[2].

الاستغاثة:

الاستغاثة: طلب العون وتفريج الكُرَب. وهي لا تكون إلاّ في الشدة. ولها أربع حالات:

الحالة الأولى: الإباحة، وتتمثل في طلب الحوائج من الناس الأحياء إذا كانوا قادرين عليها. ولكن لا يجوز أن يطلب منهم بتضرع كما يتضرع الإنسان لله الخالق سبحانه.

الحالة الثانية: الندب، يُستحب للمسلم أن يستغيث بالله أو بصفة من صفاته في الأمور الاعتيادية: كقتال العدو مثلاً؛ فإن النبي ﷺ استغاث بالله في غزوة بدر، قال تعالى:

---

(١) جامع العلوم والحكم لأبن رجب الحنبلي، ص١٦٨/ دار الفكر.

(٢) منهاج الفرقة الناجية لمحمد جميل زينو، ص٢٦-٢٧. الطبعة الرابعة.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ سورة الأنفال.

ومن أحاديث النبي ﷺ قوله:

«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلا ثُمَّ قَالَ: [أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ] لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»(١).

وتستحب الاستغاثة بالله -أيضاً- فيما لا يقدر عليه إلاّ الله وحده: كطلب الرزق، وإنزال المطر، قال تعالى:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ يونس.

كما تستحب الاستغاثة باسم الله أو بصفة من صفاته؛ لأن النبي ﷺ كان إذا كربه أمر قال:

«يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»(٢).

الحالة الثالثة: الوجوب، وذلك في حالة الشدة القصوى التي يترتب على ترك الاستغاثة هلاك الإنسان، فإن تركه مع وجوبه لحقه الإثم.

الحالة الرابعة: التحريم، وذلك حين يستغيث الإنسان بمن لا يقدر على الإغاثة، سواء كان إنساناً، أو جناً، أو ملكاً، أو نبياً، أو إماما في حياته أو بعد

---

(١) رواه الإمام أحمد، ومسلم في كتاب الدعوات (باب: في التعوذ من سوء القضاء...) ٤/ ٢٠٨٠.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٥٢٢ (باب: رقم ٩٩)، وابن السني رقم ٣٣٧، والحاكم في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل، حديث ٢٠٠٠، ١/ ٧٣٠.

مماته. قال تعالى:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ سورة النمل/ ٦٢.

شروط الإيمان:

هناك شروط يجب توافرها ليتحقق الإيمان لدى الإنسان وهي:

١- الاعتقاد الجازم بالقلب بالله ﷻ وبكل ما علم من الدين بالضرورة. فمن لم يعتقده بقلبه ويصدّق به فهو كافر. ويكون منافقاً إن تظاهر بالإسلام وأدى الفرائض. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ سورة النساء.

وقال رسول الله ﷺ:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»(١).

٢- النطق بالشهادتين: لا يصح إيمان المسلم إلاّ بعد أن ينطق بالشهادتين. وقد قال رسول الله ﷺ:

«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، وفي الإيمان (باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى)، ومسلم في كتاب الإمارة (باب: قوله ﷺ: [إنما الأعمال بالنية]).

دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلاّ بِحَقِّ الإسلام، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»[1].

وقال الإمام النووي:

((اتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد في النار، لا يكون إلاّ من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك، ونطق بالشهادتين. فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلاً إلاّ إذا عجز عن النطق لخلل في لسانه، أو لعدم التمكن منه لمعالجة المنية، أو لغير ذلك ...))[2].

٣- العمل بمقتضى كلمة الإيمان. ودليل هذا حديث رسول اللهﷺ:

«الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أو بضع وستون- شُعْبَةً. فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ»[3].

لذلك قال السلف: إن الإيمان هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

الإيمان والعمل:

الإيمان هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل، وبدت ثمراته واضحة في

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة)، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: الأمر بقتال الناس ...).

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي: ١/ ١٤٩.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان عدد شعب الإيمان)، حديث ١٥٣ ص٣٩، والنسائي في كتاب الإيمان وشرائعه (باب: ذكر شعب الإيمان).

امتثال أوامر الله والابتعاد عن نواهيه، فإذا تجردت المعرفة عن العمل، فلا فائدة فيها. ولو كانت المعرفة المجردة عن العمل تنفع أحدا لنفعت ابليس -لعنه الله- فقد كان يعرف أنّ الله واحد لا شريك له، وأنّ مصيره لا شك إليه، لكن حين صدر إليه الأمر من رب العالمين أن اسجد لآدم أبى واستكبر وكان من الكافرين، ولم تشفع له معرفته بالوحدانية؛ ذلك لأنّ المعرفة المجردة عن العمل لا وزن لها في ميزان الله رب العالمين..!

وقد فهم سلفنا الصالح من صحابة رسول اللهﷺ هذه الحقيقة، فقاتل أبو بكر الصديقرضي الله عنه مانعي الزكاة، وسماهم [المرتدين]، رغم أنهم كانوا يدّعون الإيمان، ويلتزمون بأحكام الإسلام الأخرى.

وحين نتلو القرآن الكريم، نرى كلمة الإيمان فيه لم تأت مجردة عن العمل بل عطف عليها عمل الصالحات أو الإسلام لله أو تقوى الله...

لقد فرح الناس [بإيمانهم]، وتضرعوا إلى الله أن يعفو ويصفح عمّا بدر من زلاتهم، ودعوه أن ينصرهم ويمكن لهم في الأرض، ويرضى عنهم في الآخرة، وكان دعاء الناس حارا، منبعثا من قلوب تتطلع إلى ذلك بشغف وإخلاص، لكن القرآن الكريم أعلن أنّ استجابة الله لهذه الدعوات لا تكون إلا مقرونة بالعمل؛ والكلام -وحده- لا يكفي للاستجابة؛ فلابد من جهاد وعمل. هذه الحقائق يصوّرها القرآن الكريم فيقول على لسان هؤلاء الداعين المتضرعين:

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ

﴿رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ سورة آل عمران.

فيأتي الجواب:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ سورة آل عمران.

ولقد وقع كثير من العوام في أخطاء فادحة حين تمسكوا بظواهر أحاديث تقرر أنّ من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله صدقا من قلبه أدخله الله الجنة، وحرّم على جسده أن تمسه النار! وهؤلاء حين يتمسكون بهذه الأحاديث يبغون منها التقليل والتهوين من أمر العمل، فكأنّ النطق بالشهادتين فقط كاف لإدخال الإنسان الجنة!

ولقد تكلم كثير من علمائنا في هذه الأحاديث وأمثالها، فذكر الحافظ المنذري أنّ هذه الأحاديث منسوخة، فقد قالهاﷺ في ابتداء شروق دعوة الإسلام، حين كانت دعوته إلى مجرد الإقرار بالتوحيد، أما بعد أن فُرضت الفرائض، فقد نُسخت هذه الأحاديث كلها!

وهذا الرأي لم ينفرد به الحافظ المنذري، بل هو رأي كثير من سلفنا الصالح منهم: الضحاك والزهري وسفيان الثوري وغيرهم...!

على أن طوائف أخرى من علمائنا ذهبوا غير هذا المذهب، فلم يقولوا بنسخها، بل ذكروا أنّ أركان الإسلام -كلها- هي من لوازم الإقرار

بالشهادتين؛ فلا حاجة إلى القول بالنسخ. والذي يدل على ذلك، سيرة رسول اللهﷺ حين أرسله الله، فإنه لم يطالب الناس بالنطق بالشهادتين فقط، من غير أن يعملوا بمستلزمات هذا النطق، ولو كان المطلوب منهم النطق فقط، إذن لسارع أكثر الناس –إن لم نقل كلهم– بالنطق بهاتين الكلمتين...والذي يدلنا على ذلك أنّ رسول اللهﷺ كان يأخذ العهود من الأنصار على نصرة الإسلام، ويأخذ العهود من المهاجرين على الهجرة، ويأخذ العهود منهما على الجهاد في سبيل الله..وبعد هذه العهود العظيمة الكبيرة التي كان يأخذها رسول اللهﷺ من المهاجرين والأنصار، كان يعدهم بشيء واحد إن أوفَوا –هم– بوعدهم، كان يعدهم بعد كل هذا العمل والجهاد بالجنة!

وسواء أخذنا بالرأي الأوّل الذي يقول بالنسخ، أو الرأي الثاني الذي يقول بعدم النسخ، فإنّ كلاً من هذين الرأيين يقرر أنّ هذه الأحاديث لا تؤخذ على ظاهرها، ولابد من العمل لحصول الإيمان، فلا يكون إيمان بلا عمل.

والذي يدل على ذلك آيات عديدة وأحاديث كثيرة ربطت بين الإيمان والعمل برباط وثيق متين.

وإذا كانت النصوص الأولى قد جاءت مجملة، فإنّ النصوص الأخرى الكثيرةَ التي تصرّح بالتلازم بين الإيمان والعمل، جاءت مفصِّلَة لذلك الإجمال، فقد قالﷺ:

«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإسلام، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»[1].

فنحن نلاحظ في هذا الحديث أنّ رسول اللهﷺ لم يكتف بالإقرار بالشهادتين وحدهما، بل زاد عليهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهذان الشرطان لم تذكرهما تلك الأحاديث!

ولقد قرر كثير من سلفنا أنّ الإيمان قول وعمل، فإذا تجرد القول عن العمل فقد يحل النفاق. فهذا حذيفة بن اليمانﷺ يُسأل عن النفاق ما هو فيقول:

(الرجل يتكلم بالإسلام ولا يعمل به)[2].

وقد حكى الإمام الشافعي –رحمه الله– إجماع الصحابة والتابعين على أنّ الإيمان قول وعمل. وذكر الإمام الأوزاعي أنّ السلف كانوا لا يفرقون بين الإيمان والعمل[3].

وينقل الإمام النووي قول عبد الرزاق:

(سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا: سفيان الثوري ومالك بن أنس، وعبيد الله بن عمر، والأوزاعي، ومعمر بن راشد وابن جريج، وسفيان ابن عيينة، يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وهذا قول ابن مسعود

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة) حديث ٢٥، ص٧، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: الأمر بقتال الناس) حديث ١٢٦، ص٣٣.

(٢) رواه الطبري في تهذيب الآثار ٢/ ٦٤٢، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

(٣) محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي، تأليف: زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب، ص١٣٩، علق عليه: الأمير شكيب أرسلان، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

وحذيفة والنخعي والحسن البصري، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وعبد الله بن المبارك)[1].

وذكر ابن حجر أنّ البخاري قال: (لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص)[2].

وننظر في القرآن الكريم فإذا آيات كثيرة يتجلى فيها ما ذكرناه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ سورة البقرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ سورة البقرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة هود.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ سورة الكهف.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾ سورة فصلت.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٤٦.

(٢) فتح الباري ١/ ٣٥-٣٦.

بين الإسلام والإيمان:

الإسلام هو الانقياد والخضوع والاستسلام لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض. ويدخل الإنسان في الإسلام حين يقر بالشهادتين في الظاهر، ويصدّق بما فرضه الله من فرائض: كالصلاة والزكاة وصوم رمضان والحج، فكل من أقرّ بذلك يكون مسلما.

أمّا الإيمان: فهو التصديق القلبي المطلق لله ولرسوله، وطمأنينة القلب في ذلك، ولا يُعتبر هذا التصديق إلا مع التلفظ بالشهادتين لمن يقدر على ذلك.

ونتأمل بآيات القرآن، فنجد لكل من الإسلام والإيمان مفهوما يختلف عن المفهوم الآخر، فيكون من اتصف بالإسلام له مرتبة دون مرتبة الإيمان، قال الله تعالى:

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الحجرات.

أي قولوا: استسلمنا في الظاهر، أمّا الإيمان الذي هو التصديق فلمّا يدخل في قلوبكم بعد. فإذا كان الإسلام هو الانقياد في الظاهر لله ولرسوله، والإقرار باللسان بالشهادتين، فإنّ منزلة الإيمان أعلى من ذلك؛ إذ هو التصديق القلبي المطلق لله ولرسوله، وطمأنينة القلب في ذلك مع الجهاد وغيره...فلم يكن هؤلاء الأعراب الذين ذكرهم القرآن الكريم هنا من المنافقين، بل كانوا من المسلمين لكنّهم ادعوا لأنفسهم منزلة أعلى من المنزلة التي وصلوا إليها، فبيّن

الله تعالى أنّ الإسلام مقدمة ومرحلة توصل إلى الإيمان، حين ينطق بالشهادتين ويلتزم بالاستجابة لله ولرسوله في الأوامر والنواهي، وبمرور الزمن يثبت الإيمان في قلب المسلم، فيصح أن يطلق عليه اسم مؤمن. وعلى هذا يكون كل مؤمن مسلما في أحواله كلها وزيادة، وليس كل مسلم مؤمنا؛ لأن الإيمان يترتب عليه جهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فجاءت الآية التي بعد الآية التي ذكرناها لتقرر هذه القضية، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ سورة الحجرات.

وإذا انتقلنا إلى السنة النبوية، فنجد أحاديث النبيﷺ واضحة في تبيان الفرق بين الإسلام والإيمان، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن سعدرضي الله عنه أنّ رسول اللهﷺ (أعطى رهطا وسعد جالس، فترك رسول اللهﷺ رجلا هو أعجبهم إليّ، فقلت يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا. فقال: «**أو مسلما**» . فسكتُّ قليلا، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، فقلت ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنا. فقال: «**أو مسلما**». ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول اللهﷺ ثم قال: «**يا سعد، إني لأعطى الرجل وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار**»)[1].

ويشرح ابن حجر هذا الحديث فيقول:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (باب: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل) حديث ٢٧، ص٨.

(..إنّ المسلم يُطلق على من أظهر الإسلام وإن لم يُعلم باطنه، فلا يكون مؤمنا؛ لأنّه ممن لم تصدق عليه الحقيقة الشرعية، وأمّا اللغوية فحاصلة)[1].

ويقول:

(إنّ إطلاق المسلم على من لم يُختبر حاله الخبرة الباطنة أولى من إطلاق المؤمن؛ لأن الإسلام معلوم بحكم الظاهر)[2].

وبيّن لنا النبيﷺ في حديث آخر الفرق بين الإسلام والإيمان في الحديث الذي رواه عمر بن الخطابرضي الله عنه قال:

«بينا نحن عند رسول اللهﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبيﷺ فاسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول اللهﷺ الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول اللهﷺ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ...»[3].

ونتلو القرآن الكريم مرة أخرى فنجد فيه كلمة (الإسلام) تشمل الدين

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١/ ٧٩.

(٢) فتح الباري ١/ ٨٠.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان) حديث ٩٣، ص٢٥.

كله: عقيدة وعبادة وتشريعا كما في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ سورة آل عمران/ ١٩

وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ سورة البقرة.

وقوله:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ سورة ال عمران/ ٨٥.

وقوله:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ سورة المائدة/ ٣.

وقوله:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ سورة الانعام/ ١٢٥.

وننظر في القرآن الكريم ونتأمّل في كلمتي (الإسلام) و (الإيمان) فنجد التداخل في معنييهما من جانب، والتفريق بينهما من جانب آخر، وقد أشار إلى هذا ابن تيمية رحمه الله فقال:

(فلما ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة: الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر... واذا ذكر اسم الإيمان مجردا دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة كقوله في حديث الشعب «**الإيمان بضع**

وسبعون شعبة أعلاها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق» وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان)[1].

زيادة الإيمان ونقصه:

ذهب جمهور الصحابة وعلماء الحديث وجمهور الفقهاء إلى أن الإيمان يزيد وينقص. فالناس الذين يكثرون من طاعة الله هم أكثر إيماناً من غيرهم، بل نجد الإنسان نفسه يزيد إيمانه في بعض الأوقات، وينقص في أوقات أخرى: فحين يكثر من طاعة الله والعمل بأوامره والانتهاء عن نواهيه يكون أكثر إيماناً من الوقت الذي لا يعمل فيه من الطاعات إلا قليلاً، أو يرتكب ما نهى الله عنه! وتدل على ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ سورة الأنفال/ ٢.

﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الأحزاب.

﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ سورة الفتح/ ٤.

ويدل على هذا حديث رسول الله ﷺ:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[2].

وقوله:

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٤. طبعة ابن القاسم.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأشربة (باب: قول الله إنما الخمر والميسر ...)، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي)، ١/ ٧٦-٧٧.

«الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[1].

وقوله:

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[2].

وقوله:

«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»[3].

ونقرأ عن صحابة النبيﷺ، فنجد معاذ بن جبلرضي الله عنه كان يقول للرجل من إخوانه: (إجلس بنا فلنؤمن ساعة؛ فيجلسان، فيذكران الله ويحمدانه)[4].

وكان عبد الله بن مسعودرضي الله عنه يقول في دعائه:

(اللهم زدني إيمانا ويقينا وفقها)[5].

وعن جندب بن عبد الله قال: (كنّا مع النبيﷺ ونحن فتيان حزاورة،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان عدد شعب الإيمان) حديث ١٥٢،

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان..) حديث ١٧٧، ص٤٢.

(٣) رواه أبو داؤد في كتاب السنة (باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصه) حديث ٤٦٨٢، ص٨٤٦.

(٤) شرح أصول اعتقادات أهل السنة والجماعة للالكائي ٤/ ٣٤.

(٥) كتاب الشريعة للآجري ص١١٣، وقد روى الحديث ابن بطة ١١٣٢، وصححه ابن حجر في الفتح.

فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن؛ فازددنا به إيمانا)[1].

وإذا كان كل ما هو قابل للزيادة قابل للنقص، فإنّ المعاصي تضعف الإيمان.

وما مثل زيادة الإيمان ونقصه إلا كمثل المولود الجديد يكبر جسمه إذا تغذَّى، ويكبر فكره إذا تعلم وتهذب، ومع ذلك فإن جسمه لم يزد فيه يد ولا رجل ولا عين ولا أي عضو كان...! وهكذا الإيمان: فكلما غذيناه أزداد وكبر، أما إذا لم نغذه فإنه يبقى على صغره، وقد يموت إذا أُصيب بأمراض قاتلة ولم يعمل على مقاومتها.

إن النفس البشرية تتأثُر بالأدلة، وتزداد طمأنينتها كما تتأثر الأجسام الصلبة بالحفر: فكلما كانت الآلةُ التي تحفر بها قويةً يظهر أثر ذلك الحفر. وهكذا حال النفس الإنسانية بتأثيرها بالأدلة؛ فيحدث التفاوتُ بالتصديق.

بماذا يزيد الإيمان:

هناك أسباب كثيرة تؤدي إلى زيادة الإيمان منها ما يأتي:

١- العلم بالله تعالى وصفاته وقدرته تعالى في هذا الكون، والتأمّل بمخلوقاته من الإنسان والحيوان؛ إذ فيها من التناسق والإبداع ما يُذهل العقول ويحيّر الألباب، وكذلك قراءة السيرة النبوية، والتأمّل في عبادتهﷺ وجهاده...وكذلك ما كان عليه الصحابة من جهاد في سبيل الله أذهلَ كتاب

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (باب: في الإيمان) حديث ٦١، ص١٠. وحزاورة هو جمع حزْوَر وحزوّر: وهو الذي قارب البلوغ.

التاريخ قديما وحديثا، وقد كان الصحابةﷺ على علم بزيادة الإيمان فكان عبد الله بن مسعودﷺ يقول في دعائه: اللهم زدنا إيمانا ويقينا.

وكان أبو الدرداءﷺ يقول: من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص؟[1].

٢- الإكثار من عبادة الله وطاعته في كل صغيرة وكبيرة والابتعاد عن أية معصية كانت من المعاصي قال الله تعالى:

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ سورة مريم.

٣- الذكر والدعاء بقلب حاضر غير غافل بما يليق بعظمته وجلاله، والاقتصار على الأحاديث الصحيحة المأثورة عن النبيﷺ فإنّ ذلك يجعل قلب المؤمن موصولا بالله، وقد مدح الله تعالى عباده أولي الألباب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾سورة آل عمران.

توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

ينقسم التوحيد على قسمين: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

١- توحيد الربوبية: هو الاعتقاد بأنّ الله تعالى وحده هو خالق كل ما في هذا الكون، وبيده كل شيء من الإحياء والإماتة والشفاء والمرض، فهو النافع

---

(١) القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية، اقتبسها وصاغها الدكتور: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص٢٤٢، الطبعة الأولى ١٤٢١-٢٠٠٠، دار القلم، دمشق.

والضار، والرافع والخافض، لا ينازعه في ذلك أحد. وقد كان المشركون في الجاهلية يقرون بهذا، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ سورة العنكبوت/ ٦١.

وقوله:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ سورة المؤمنون.

٢- توحيد الألوهية: هو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة والطاعة المطلقة والدعاء، ولا يكون هناك توحيد إلا إذا انضم توحيد الألوهية إلى توحيد الربوبية. فإنّ الربّ الذي يحيي ويميت، وينفع ويضر، هو الذي يستحق العبادة، ولا يستحق ذلك غيره. وقد كان المشركون في الجاهلية يوحدون الله في ربوبيته، ولا يوحدونه في ألوهيته، فما نفعهم ذلك، وقد أقام القرآن عليهم الحجة في آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ سورة الحج.

فلا يستحق العبادة إلا من انفرد بالخلق والإيجاد.

ونتأمّل في توحيد الألوهية، فنراه أعظم أقسام التوحيد، وقد بعث الله

أنبياءه لإقامته في الأرض.

ومن مقتضيات توحيد الألوهية أن لا يسأل العبد غير الله، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، وقد وضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ سورة الفاتحة/ ٥.

وقوله:

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ سورة هود/ ١٢٣.

الشرك:

الشرك: أن يجعلَ الإنسان لله شريكاً: في ألوهيته وعبادته. فهو يؤمن بوجود الله، وبأنه خلق السموات والأرض، وأنه يدبر شؤون الخلق كلها، لكنه يعبد من دونه آلهة أخرى. وقد صور القرآن الكريم عقيدة هؤلاء المشركين فقال تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ سورة الزخرف.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ سورة العنكبوت.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ سورة يونس.

ومن الشرك أن يعتقد أنَّ غيَره تعالى يضر وينفع، أو أنَّ أحداً يتوسط عند الله أو يقربه إليه زلفى، أو يرجو الإنسانُ من الموتى جلبَ النفع أو دفعَ الضر، أو يدعو غيرَ الله من الأنبياء والأولياء لطلب الرزق أو شفاء المرض، أو الاعتقاد بأن بعضَ الأولياء يستطيع أن يُديَر شؤونَ الكون، أو يتصرفَ في اللـوح المحفوظ ...!!!

والشركُ الأكبرُ يُحبط عملَ الإنسان؛ لأن الله تعالى يقول:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة الزمر.

وإذا كانت الذنوب –كلها– قد يغفرها الله إن شاء، فإن الشرك بالله لا يغفره إلا بالتوبة وترك الشرك كله. هكذا نصَّ الله في قرآنه، قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ سورة النساء.

والشركُ أنواع منه:

١– عبادة غير الله من أصنام وأوثان أو أجرام سماوية، وزعمهم أن لها القدرة على الخلق ...

٢– إشراك قسم من المخلوقات في بعض صفات الله: كالقول بوجود خالق للخير وخالق للشر، أو الاعتقاد بالتثليث.

٣– إتخاذ بعض الناس أرباباً لهم من البشر: وذلك إذا حللوا لهم الحرام، وحرّموا عليهم الحلال، فأطاعوهم، قال تعالى:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ سورة التوبة/ ٣١.

هذا هو الشرك الأكبر. وهناك ما يسمى بالشرك الأصغر وهو الشرك الخفي. والمراد به: مراعاة غير الله في العبادة ومن أمثلته الرياء، قال تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ سورة الكهف.

وقد نزلت الآية فيمن يطلب الحمد من الناس بجهاده.

والشرك الأصغر أنواع:

منه الحلف بغير الله: كأن يحلف الإنسان بالنبي، أو بإمام من الأئمة، أو الكعبة، أو تربة الوطن، أو بحياة فلان من الناس، أو بولي من الأولياء، أو بالآباء والأجداد ... قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حَلَفَ بغير الله فقد أشرك»[1].

ومن أنواع الشرك الأصغر: تعليق التمائم[2]؛ ذلك أن الناس كانوا يعتقدون أنَّ هذه التمائم تجلب لهم الخير، أو تدفع عنهم الشر! أما إذا كانت التميمة من آيات الله، أو فيها أسماؤه وصفاته، فقد اختلف السلف فيها: فمنهم مَنْ أجاز ومنهم مَنْ منع.

---

(١) رواه الإمام أحمد، والترمذي، وحسَّنه الحاكم. أنظر: فيض القدير للمناوي، ٦/ ١٢٠.

(٢) التمائم المنهي عنها: هي خرزات أو خرزة، كان العرب في الجاهلية يعلقونها على الأولاد أو غيرهم، زاعمين أنها تدفع عنهم الجن، أو تقيهم العين!

ومن أنواع الشـرك الرقى[1]، والسحر، والتنجيم[2]،والتولة[3]، والكهانـة[4]، والعرافـة[5]، والنذر لغير الله، والذبح لغير الله، والطيَرة[6] ... إلى غير ذلك من أنواع الشرك الكثيرة. وهكذا نجد الإسلام قد وقف موقفاً حازماً من الشرك؛ فنهى عنه وحذَّرَ منه، وأغلق كل المنافذ التي يمكن أن ينفذ منها أو يدلف. فيجب على المسلم أن يحذر من كل نوع من أنواع الشرك؛ واضعاً أمامه حديث رسول الله ﷺ:

«اللهم إنا نعوذ بك من أن نُشرِكَ بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»[7].

---

(١) وهي كلمات وتمتمات كان أهل الجاهلية يقولونها، ويعتقدون أنها تدفع عنهم الأذى؛ فكانوا يرددون في الرقى كلماتٍ غير مفهومة، يستعينون بها بغير الله!

(٢) المنجمون: هم الذين يزعمون أنهم يعرفون ما سيكون في المستقبل عن طريق النجوم والنظر فيها.

(٣) وهي كتابة كلمات وحروف وتعليق بعض الأشياء؛ زعماً أن ذلك يحبِّبُ المرأة إلى الرجل، ويحبب الرجلَ إلى المرأة!

(٤) هي عملية الإخبار عن المغيبات في المستقبل، أو الإخبار عما في الضمير.

(٥) العرافة: ادعاء معرفة الغيب سواء كان في المستقبل أم في الضمير، ويكون ذلك عن طريق الاتصال بالجن، أو النظر، أو الخط في الرمل، أو قراءة الفنجان.

(٦) الطيرة: هي التشاؤم بما يرى الإنسان أو يسمع؛ فيردّه ذلك عن حاجته التي عزم على فعلها: أو ما شابه ذلك. وقد دخل صاحب هذا التشاؤم بالشرك؛ لأنه لم يخلص توكله على الله.

(٧) رواه الإمام أحمد، والطبراني بإسناد جيد، ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة ..

أسباب الشرك:

هناك أسباب كثيرة جعلت الناس يتركون عقيدة التوحيد التي فطر الله الناس عليها، ويدخل الشرك في نفوسهم، منها ما يأتي:

١ - الإعجاب والتعظيم:

دعا القرآن الحكيم إلى احترام الوالدين، واحترام أنبياء الله ورسله، واحترام العلماء والمسنين ومن عُرفوا بالتقوى والصلاح ... فقال تعالى:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة الإسراء.

وقال رسول الله ﷺ:

«الْعُلَمَاء وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»[1].

لكن الاحترام والتعظيم قد يخرج عن طوره الاعتيادي. ويزداد خروجه حتى يصل إلى التقديس. ومن هنا يدخل الشرك إلى النفس البشرية؛ ذلك لأن التقديس لا يكون إلاّ لله وحده. وكل تقديس لإنسان أو ملك أو جني أو شمس أو قمر هو لون من ألوان الشرك. ومن هذا اللون -لون الإعجاب والتعظيم- ما ذكره القرآن على لسان نوح عليه السلام:

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم (باب: العلم قبل القول والعمل ...)، والنسائي في كتاب الإيمان وشرائعه (باب: ذكر شعب الإيمان).

﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة نوح.

ولقد أورد لنا ابن كثير في تفسيره كيف عُبِد (يغوث) و(يعوق) و(نسرا).

فعن محمد بن قيس قال:

((كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يعتقدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم؛ فصوروهم. فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر؛ فعبدوهم))[1].

ومن هذا اللون ما وقع به اليهود حين زعموا أن (عزيراً) ابن الله، وما وقع به النصارى حين زعموا أن المسيح ابن الله، قال تعالى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة التوبة.

٢- الإيمان بالمحسوس وحده:

من قواعد الإيمان: الإيمان بالغيب. وهو أول صفة من صفات المتقين، قال تعالى:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ سورة البقرة.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٢٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

لكن النفس البشرية قد تصاب بداء الإيمان بالمحسوس وحده، فتنكر ما وراءه، وتزعم أنه غير موجود.! والإيمان بالمحسوس -وحده- داء وبيل أُصيب به عدد ليس بالقليل من الناس قديماً وحديثاً؛ لأنهم تصوّروا –خطأ- أن حوّاسهم هي الطريق الوحيد للتعرف على كل شيء! وما درى هؤلاء انّ الحواس محدودة القوة كيفاً وكماً. ولقد وقع بنو إسرائيل في الشرك؛ فقالوا لنبيهم موسى عليه السلام كما حكى القرآن الكريم:

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ سورة البقرة/ ٥٥

وتأصلت في نفوسهم المادية الجامحة، والإيمان بالمحسوس وحده، فطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً من صنم يعبدونه. قال تعالى:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ سورة الأعراف.

٣- الهوى والشهوات:

يأتي (الهوى) بمعنى الميل والحب والعشق. والمراد به: إرادة الشيء وتمنيه. وإذا أطلق لا يكون إلاّ بمعنى الذم. فهو سبب من أسباب الشرك، وقد يكون سبباً من أسباب الفسق –أيضاً-:

فيكون من أسباب الشرك: إذا جعل الإنسان منه إلهاً مطاعاً يعبد من دون الله. وإذا تأملنا في آيات القرآن الحكيم، نرى أنه قد جاء بكلا المعنيين: فجاء بمعنى الكفر الأكبر المخرج من الملة في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ سورة الأنعام/ ١٥٠

وقوله تعالى:

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ سورة الفرقان.

وقوله:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ سورة الجاثية/ ٢٣ .

ومن الهوى الذي يكون إشراكاً مع الله: أن يصير (الهوى) مصدراً من مصادر التشريع، كما نجد ذلك في كثير من أنظمة العالم اليوم. فالحلال: ما يراه الهوى حلالاً، والحرام ما يراه حراماً -ولو خالف ذلك شرع الله-.

وأما (الهوى) الذي بمعنى الفسق أو المعصية، فقد جاء بآيات كثيرة، منها قول الله تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ ﴾ سورة النازعات.

وهكذا يكون الهوى سبباً من أسباب الفسق والمعصية إذا ارتكب الإنسان ذنباً لا يخرجه عن ملة الإسلام، وذلك: كشرب الخمر، والزنا ... من غير استحلال.

وباختصار نقول: هناك أحكام تتضمن أوامر ونواهي جاء بها الأنبياء عن الله ﷻ ولابد للإنسان أن يشعر برقابة الله -سبحانه- ويروّض نفسه على

الالتزام بتلك الأوامر والنواهي. لكن اتباع الهوى والشهوات يحول -في بعض الأحيان- دون ذلك. ويوغل قسم من الناس في اتباعها، حتى يصيروا عبيداً لها؛ فتصير آلهة تعبد من دون الله!!

وهكذا يكون اتباع قسم من الشهوات لوناً من ألوان الشرك بالله، نعوذ بالله من الشرك وأهله!.

٤- طاعة الذين يشرعون لأنفسهم، ويرفضون الحكم بما أنزل الله:

هناك من الناس من يقوم بوضع تشريعات لبني البشر لا تمت إلى الإسلام بصلة، ويحملهم على جعلها منهاج حياة لهم، ويرفض الحكم بما أنزل الله، فيحل لهم ما حرّمه الله، ويحرّم عليهم ما أحله الله. وهؤلاء بعملهم هذا قد نصبوا أنفسهم آلهة تعبد من دون الله -ولو لم يدَّعوا ذلك-؛ لأن الذي له حق التشريع هو الله تعالى وحده: فهو الذي يحل الحلال ويحرّم الحرام. وكل من ادعى أن له الحق في التحليل والتحريم، فقد جعل نفسه شريكاً لله. وكل من يطيع هؤلاء في التحليل والتحريم عن رضىً، فقد أشرك المشرّع في العبادة مع الله.

أنواع الشرك:

يظن كثيرٌ من الناس أن الشرك نوع واحد، يتمثل في عبادة الأصنام والأوثان بالسجود لها، وتقريب القرابين إليها، كما كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية عند مبعث النبي ﷺ. ولكن دائرة الشرك هي أوسع من ذلك، إنها تتمثل بصور كثيرة منها ما يأتي:

١ - شرك التقرب والزلفى:

حين نتأمل في قول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ سورة الزمر/ ٣.

نجـد العرب عند مبعث النبي ﷺ كانوا يعتقدون أن الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر هو الله تعالى وحده، لكنهم كانوا يشركون به حين يعتقدون أن الأصنام والأوثان تقربهم إلى الله الذي خلقهم. وقد عمل الشيطان في إغواء كثيرٍ من الناس، وجعلهم يشركون بالله من حيث يشعرون أو لا يشعرون؛ فصاروا يطوفون حول الأضرحة في ديار الإسلام وغيرها، معتقدين أنها تقربهم إلى الله زلفى! وزاد هؤلاء في شركهم حتى صاروا يخشون من يطوفون بأضرحتهم أكثر من خشيتهم من الله تعالى.

إنها أساليب الشيطان في إدخال الشرك في نفوس الناس.

٢- شرك الطاعة:

العبادة هي الطاعة. وعبادة الله هي طاعته، والتلقي عنه في كل شأن من شؤون الحياة. فكل من يعتقد بوجود الله، وأنه يتصف بأوصاف الكمال، عليه أن يطيعه. أما الذي لا ينصاع لأوامر الله ونواهيه، ويتوجه بالطاعة لغيره في التحليل والتحريم، فقد أشرك بالله –ولو كان يعتقد في قرارة نفسه أن الله واحد لا شريك له–. ويدلنا على هذا المعنى ما روي عن عدي بن حاتم الطائي الذي كان قد تنصر في الجاهلية، فقد دخل على النبي ﷺ وفي عنق عدي صليب،

والنبي الكريم يقرأ قول الله تعالى:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ سورة التوبة/ ٣١ .

فقال له عدي: إنهم لم يعبدوهم؛ فقال النبي ﷺ:

«بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم؛ فذلك عبادتهم إياهم»[1].

ويبدو من هذه الرواية أن عدياً كان يعتقد أن العبادة هي الركوع والسجود فقط؛ فبيّن له النبي الكريم أن طاعة الأحبار والرهبان في تحريم الحلال، وتحليل الحرام هي إشراك بالله. ونقول في ضوء ما ذكرناه: إنّ كل من يأمر بخروج المرأة سافرة مخالطة الرجال، ويطيعه الناس في ذلك، فقد اتخذوه إلهاً من دون الله.

٣- شرك الرياء:

المراد بالرياء أن يتوجه الإنسان بعمله لغير وجه الله تعالى، من أجل أن ينال ثناء الناس ومديحهم وحبهم له. وهذا محبط للعمل، وليس له ثواب في الآخرة. قال الله تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ سورة الكهف.

---

(١) رواه الإمام أحمد، والترمذي في كتاب تفسير القرآن حديث ٣٠٩٥.

وقال رسول الله ﷺ:

«إِذَا جَمَعَ اللهُ ﷻ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَحَدًا، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ ﷻ فَإِنَّ اللهَ ﷻ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ»[1].

وقال:

«مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ ﷻ لا يَتَعَلَّمُهُ إِلاّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنْ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2] يَعْنِي رِيحَهَا.

وروى الإمامان البخاري ومسلم: أَنَّ رَجُلا جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ فسأله: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حمية، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ من قومه، فأي ذلك فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العليا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[3].

ولقد حذر الله تعالى من الشرك؛ فقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ:

«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ٣/ ٦٦ و٤/ ٢١٥.

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب العلم: (باب: في طلب العلم لغير الله تعالى) حديث ٣٦٦٤، ص٦٥٩.

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم (باب: من سأل وهو قائم عالماً جالساً) وفي كتاب الجهاد وغيرهما، ومسلم في كتاب الإمارة (باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا).

(٤) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (باب: من أشرك في عمله غير الله).

من آثار الشرك:

للشرك آثار وبيلة، منها:

١- إحباط العمل:

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة الزمر .

٢- الخلود في النار:

لا يعرف حقيقة الخسارة في الدار الآخرة إلاّ من علم ما أعدّ الله للمشرك في دار الخلود، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ سورة النساء.

تصور هذه الآيات حقيقة الخسارة الكبرى التي تنال المشركين. إنها خسارة العذاب الدائم في نار الجحيم. وننظر في هذه الحياة الدنيا، فنجد الإنسان إذا تعرّض لحريق في عضوٍ من أعضاء جسده، تصير حياته قطعة من

العذاب: فهو يتقلب على جمر الغضى ويذوق العذاب الأليم في كل لحظة من اللحظات في ألوان عديدة. وهذا العذاب الذي يناله في الدنيا لا يُعدّ شيئاً يذكر بالنسبة إلى العذاب الذي أعده الله للمشرك في الدار الآخرة. وإذا كان الإنسان بعد إصابته بالحروق يموت ويتخلص من ذلك العذاب، فإن الإنسان المشرك يظل شقياً في دار الخلود، فلا هو يموت، ولا يحيا الحياة الطيبة، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾سورة النساء/ ٥٦.

الكفر:

الكفر لغة: التغطية والستر. يقال لليل كافر؛ لأنه يستر الأشياء بظلمته، ويقال للإنسان الكافر كافر؛ لأنه ستر فطرته وعقله بالجهل. والإنسان الكافر يعلم أنه ما خَلَقَ نفسه، فلا بد أن يكون له خالق، لكنه لا يهتم بهذا، فيهيم في طبيعة جامدة، أو وثن أصم، أو يكون تائهاً: كريشة في مهب الريح، فهو مَنْ جحد شيئاً مما افترض الله الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه. وينقسم الكفر على قسمين: الكفر الأكبر وهو ما يسمى الكفر بأصل الإيمان، والكفر الأصغر وهو ما يسمى الكفر بفروع الإسلام.

أولاً: الكفر الأكبر: وهو الكفر الصريح الواضح بالله ﷻ وتجري على صاحبه أحكام الكفر المعروفة، ويكون من المخلدين في النار، ويشير إلى هذا القسم من الكفر قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ

﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ سورة البقرة.

وعن عُبَادَة بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قال:

«دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلاّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[1].

والكفر بأصل الإيمان هذا ينقسم على أقسام:

١- كفر إنكار: ككفر الوثنيين من عُبَّاد الطبيعة، الذين لا يؤمنون بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً هو الذي يدبر شؤون الكون كله، ولا يؤمنون أن لله ملائكة أو كتباً أو رسلاً مبشرين ومنذرين، ولا يؤمنون -أيضاً- باليوم الآخر الذي يجازى فيه الناس على ما اعتقدوا من عقائد، وما عملوا من أعمال إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. هؤلاء الذين قال الله فيهم:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ سورة الأنعام.

وقد عبر بعضهم عن هذه العقيدة، فقالوا: إن هي إلاّ أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا شيء بعد ذلك.

٢- كفر جحود: وهو أن يعرف الله بقلبه، لكنه يكفر به: ككفر المشركين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن (باب: قول النبي ﷺ: [سترون بعدي أموراً تنكرونها...] حديث ٧٠٥٦ ص١٢١٧.

٣- كفر عناد: وهو أن يقرَّ بلسانه، ويعترف بقلبه، لكنه لا يدين بذلك حسداً وبغياً.

٤- كفر نفاق: وهو أن يقرَّ بلسانه ولا يعتقد بقلبه.

ثانياً: الكفر الأصغر: وهو الكفر الذي لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام، ويترك في الآخرة لمشيئة الله: إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولا يخلد في نار الجحيم، وتناله الشفاعة. وهذا هو الذي يطلق عليه اسم الكفر بفروع الإسلام: وهو كفر دون كفر. مثال هذا النوع من الكفر: ما قصة الله ﷻ في قرآنه مما كان من أمر الهدهد وسليمان عليه السلام، قال تعالى:

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾سورة النمل/ ٤٠.

ومعنى: ﴿ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أأشكر النعمة،أم أكفرها فلا أشكر لها؟

ويمثل للكفر الأصغر -أيضاً- بحديث النبي ﷺ:

«سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1].

وقوله صلوات الله وسلامه عليه:

«لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: ما يُنهى من السباب واللعن)، حديث ٦٠٤٤ ص١٠٥٥-١٠٥٦، وفي الإيمان والفتن، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: قول النبي ﷺ «سباب المسلم فسوق» حديث ٢٢١ ص٤٨.).

(٢) متفق عليه.

وقوله:

«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[1].

وقوله:

«اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[2].

وقوله:

«أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ)). قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَالَ: ((يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ. لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»[3].

فهذا الكفر هو كفر النعمة والإحسان، ولا يخرج صاحبه من الملة، وهو كفر دون كفر؛ لذلك نرى الإمام البخاري قد ترجم له في صحيحه بعنوان (كفران العشير، وكفر دون كفر).

وإذا كان كفران النعمة لا يخرج صاحبه من الملة، فلأنه انشغل بالنعمة عن واهبها الحقيقي: وهو الله تعالى، أو لأنه لم يقم بحق شكرها.

والفيصل بين قسمي الكفر: الخلود في النار: فالقسم الأول يخلد في النار،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الأيمان والنذور (باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير الله)حديث ١٥٣٥ ص٣٧٢.

(٢) رواه الإمام أحمد، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: إطلاق اسم الكفر على الطعن)حديث ٢٢٧ص ٤٩.

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان (بابل: كفران العشير، وكفر دون كفر)حديث ٢٩ ص٨.

والثاني يعذب عذاباً شديداً ولا يخلد.

والكافر بأصل الإيمان: إنسان تائه في هذا الوجود، لم يستخدم فطرته وعقله وعلمه ليعرف مَنْ خلقه، ولماذا خلقه، وما مصيره بعد الموت؛ فأنكر وجوده –سبحانه– واستكبر عن عبادته، وأبى أنْ يستجيب لأوامر الله ونواهيه. ولو استخدم عقله وعلمه لما كفر بالله وارتكس في هذا الحضيض الآسن من جمود الفكر.

تكفير من سبّ الله تعالى:

كل من سبّ الذات الإلهية، أو استخفّ بها، أو استهزأ، فإنه يكفر؛ لقول الله تعالى:

﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة التوبة.

واختلف العلماء في قبول توبة هؤلاء:

فذهب الجمهور إلى قبولها، وذهب الحنابلة إلى عدم قبولها، وأن صاحب ذلك يقتل في كل حال في الدنيا.

تكفير من سبّ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم:

كل من سبّ نبياً من الأنبياء، أو استخف به فإنه يكفر. وقد ذهب الحنفية والشافعية إلى أن بسبه يكون مرتداً فيستتاب فإن تاب وإلاّ قتل. أما المالكية والحنابلة، فقد قالوا بأنه يقتل حداً ولا تقبل توبته إن تاب.

الكافر وقبول عمله:

والكافر لا يقبل منه عمل؛ لأنه لا يصدق بالحق الذي جاء من عند الله.

فهو قد عطل أدوات العلم عن معرفة الله: فلا يرجو ثواب ربه ولا يخاف عقابه، ولا يبتغي بعمله وجه الله، ولا يهمه إن كان عمله حلالاً أم حراماً ... لذلك لا يستحق الثواب على العمل، وإن كان فيه ما فيه من النفع الجزيل للإنسانية: كهذه المخترعات الحديثة التي نفعت الإنسانية: كالكهرباء، والطائرات، ووسائط النقل؛ فإنه يأخذ أجره في الدنيا ويعاقب على كفره وضلاله؛ لأنه لم يبحث عن الدين الصحيح الذي يوصله إلى الإيمان الحق. قال الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ ﴾ سورة النور.

الفسق:

الفسق في اللغة: هو الخروج عن الطاعة، وعن الدين، وعن الاستقامة.

وفي الاصطلاح: هو الخروج عن الطاعة، وتجاوز الحد بالمعصية.

والفاسق: هو مَنْ وقع بالكبائر –قليلة كانت أو كثيرة–. وقد يكون (الفسق) شركاً، وقد يكون إثماً. ويطلق لفظ (الفاسق) في غالب الأمر على مَنْ أقرّ بحكم الشرع والتزم به، ثم أخلّ ببعضه: كالمسلم الذي ترك الفرائض، أو فعل المحرمات.

وينقسم الفسق على قسمين: الفسق الأكبر، والفسق الأصغر.

أما الفسق الأكبر، فإنه يخرج صاحبه من الملة: كالشرك والكفر. ويمثل له بقول الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ سورة التوبة.

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ سورة البقرة.

فهذا الفسوق مرادف للكفر، ونافٍ للإيمان، ومخرج من الملة.

وأما الفسق الأصغر، فيراد به المعصية التي لا تخرج صاحبها من الإسلام.

ويمثل له بقول الله تعالى:

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ سورة البقرة/ ١٩٧.

وقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ سورة الحجرات.

أما رسول الله ﷺ، فيقول في هذا المعنى:

«سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1].

يتضح من هذا أن المراد بالفسوق هنا: هو الذنب الذي لا يخرج صاحبه من الإيمان.

فلفظ (الفسق) إذن يطلق ويراد به الكفر المخرج من الملة، ويطلق

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: ما يُنهى من السباب واللعن)، حديث ٦٠٤٤ ص١٠٥٥-١٠٥٦، وفي الإيمان والفتن، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: قول النبي ﷺ [سباب المسلم فسوق]).

-أيضاً- ويراد به الذنب الذي لا يخرج صاحبه من الإيمان.

وقد أجمع العلماء على حرمة (الفسق)؛ لأنه خروج عن أحكام الله، وأن صاحبه يعاقب بالحد أو التعزير.

الظلم:

من معاني الظلم في اللغة: مجاوزة الحد، ووضع الشيء في غير موضعه. ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي. وينقسم على قسمين: ظلم أكبر، وظلم أصغر.

١- الظلم الأكبر: وهو يشبه الكفر بالله والشرك. فهو ينزع الإيمان من صاحبه، قال تعالى على لسان لقمان:

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ سورة لقمان.

٢- الظلم الأصغر: هو الذنب الذي لا يخرج صاحبه من الملة. ويتمثل في ظلم الناس أنفسهم، وظلم العباد بعضهم مع بعض، وظلم العباد أنفسهم بتقصيرهم بامتثال أوامر الله ونواهيه، قال تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ سورة البقرة/ ٢٣١.

وقال:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ سورة آل عمران/ ١٣٥.

وقال على لسان آدم عليه السلام وزوجه:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة الأعراف.

يتبين من هذه الآيات وغيرها: أن المراد بالظلم هنا هو الظلم الأصغر الذي لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام.

وفي هذا المعنى ورد حديث رسول الله ﷺ:

«الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه. فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، قال الله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وأما الظلم الذي يغفره الله، فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله، فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدير لبعضهم من بعض»[1].

من هذه النصوص وغيرها يتبين لنا أن لفظ (الظلم) يطلق ويراد به الشرك، ويطلق ويراد به الذنب، والمعصية التي لا تخرج صاحبها عن الدين الحق.

ويورد الإمام ابن تيمية حديث النبي ﷺ:

«الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل»، فيذكر قول ابن عباس وأصحابه: [كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق]. ويشير

(١) رواه الطيالسي، والبزار عن أنس. أنظر: صحيح الجامع الصغير ٣٩٦١.

-رحمه الله- إلى أن هذا ما ذهب إليه أهل السنة: كأحمد وغيره[1].

الردة:

الردة: هي رجوع المسلم عن الإسلام، سواء اعتنق ديناً آخر أم لا. وشروط الردة: البلوغ، والعقل، والاختيار. وتحصل بأمور عديدة، منها: أمور اعتقادية، ومنها أمور قولية، ومنها: أمور فعلية. وتثبت بالشهود، أو بالاعتراف، أو بهما معاً. وبالردة ينفصم عقد الزواج، سواء كانت الزوجة مسلمة، أو كتابية، أو مرتدة. ولا يجوز أكل ذبيحة المرتد. وتنقسم الردة على قسمين:

١- الردة المجردة: وصاحبها لا يؤذي المسلمين، ولا يشتم الإسلام، فهذا يُستتاب قبل أن يُقتل: فإن تاب وإلاّ قُتل.

٢- الردة المغلظة: وصاحبها يؤذي المسلمين، أو يكيد لهم ... فهذا لا يستتاب، ولا تقبل توبته بعد القدرة عليه، ولا يعامل معاملة صاحب الردة المجردة. قال الإمام (ابن تيمية) رحمه الله:

((ويُفرّق في المرتد بين الردة المجردة، فيقتل إلاّ أن يتوب، وبين الردة المغلظة، فيقتل بلا استتابة))[2].

النفاق:

النفاق: هو مخالفة الباطن للظاهر وهو نوعان: نفاق أكبر ونفاق أصغر، ويمكن أن نطلق عليه: نفاقاً اعتقادياً، ونفاقاً عملياً.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٧/ ٦٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠/ ١٠٣.

١- النفاق الاعتقادي -وهو النفاق الأكبر-: هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر. ويترتب على صاحبه ما يترتب على الكافر. فينتفي الإيمان عن صاحبه، ويخلد في نار جهنم، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ سورة النساء.

وقال:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ سورة التوبة.

هذا هو النفاق الاعتقادي وهو النفاق الأكبر وصاحبه كافر في الباطن ويتظاهر بالإسلام، وهو خارج عن ملة المسلمين.

وإذا أُطلق لفظ (النفاق) و(المنافقين) في القرآن، فإن المراد به النفاق الاعتقادي هذا، قال الله تعالى:

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ سورة المنافقون[1].

٢- النفاق العملي -أو النفاق الأصغر-: وصورته أن يتصف المسلم المصدق بكل ما جاء به الإسلام، لكنه يتصف بصفات نهى عنها النبي ﷺ. وهذا النفاق لا ينفي عنه صفة الإيمان، فهو إذن دون النفاق الاعتقادي، وصاحبه

(١) سورة المنافقون، الآية ١.

يعذب في الدار الآخرة، لكنه لا يخلد في نار جهنم، وهو ممن تناله شفاعة الشافعين.

وقد تحدث رسول الله ﷺ في هذا النوع من أنواع النفاق فقال:

«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(١).

وقال:

«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(٢).

وقد أوضح هذه القضية الإمام النووي فقال:

((أجمع العلماء على أن منْ كان مصدِّقاً بقلبه ولسانه، وفعل هذه الخصال، لا يحكم عليه بكفر، ولا هو يخلد في النار ... وقوله (منافقاً خالصاً) معناه: شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال ... وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي ﷺ معناه عند العلماء مطلقاً فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم: نفاق العمل ... وحكى الخطابي –رحمه الله– قولاً آخر معناه: التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يخاف عليه أن تفضي به إلى حقيقة النفاق))(٣).

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: خصال المنافق) حديث ٢١٠ ص٤٦.

(٢) متفق عليه. وانظر: زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم: ١/ ١٢٦.

(٣) شرح صحيح مسلم للإمام النووي: ٢/ ٤٦-٤٧.

تكفير المسلم:

ولا نُكفِّرُ أحداً من أهل القبلة أقرَّ بالشهادتين وعمل بمقتضاهما إذا اقترف ذنباً عُلِمَ تحريمهُ من الدين بالضرورة إلا إذا اعتقد حلَّه، أو كذَّبَ صريح القُرآن، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غيرَ الكفر: فلا يكون إخراج المسلم من الإسلام إلاّ بدليل قاطع لا يحتمل التأويل، وهو الكفر بأصل الإيمان. ولا نجد في الأحاديث النبوية أن الرسولﷺ قد حكم على واحد من الصحابة بالكفر لوقوعه بكبيرة من الكبائر: كالقتل، والزنا، وشرب الخمر ... ونحن نرجو لكل محسن من المؤمنين أنْ يعفوَ الله عنه، ويُدْخله في رحمته في الجنة. بل لقد ذهب المحققون من العلماء إلى أبعدَ من ذلك فقالوا: إن المسألة إذا كان فيها وُجوهٌ توجب التكفير ووجهٌ واحد لا يوجبه، فعلى المفتي أن يحكم بعدم التكفير؛ تحسيناً للظن بالمسلم، اللهم إلاَّ إذا صرَّح هو بإرادته لما يوجبه الكفر؛ فعند ذاك لا ينفع التأويل. وما أروع ما قاله الطحاوي:

(ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدِّقين ... ولا نكفِّرُ أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ... ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه)[1].

نواقض الإيمان:

ومع ذلك، فقد يَرِدُ على قلب المسلم اعتقاد أو عمل، يُخْرجُه من حقيقة الإيمان ويُدخله في الكفر، وهذه الاعتقادات أو الأعمال كثيرة، وسأذكر بعضها

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص٣١٣ وما بعدها، الطبعة الثامنة، ١٤٠٤-١٩٨٤/ المكتب الإسلامي.

على سبيل المثال:

١- **الاعتراض على شيء من تشريع الله:** وَضَعَ الله شرائعَ للبشر على ألْسنة رسله وهو العليم بما يصلحهم. فإذا اعترض معترض على شيء منها فقد اعترض على مُنَزِّلها سبحانه، وهذا هو الكفر بعينه: فمن اعترض على حكم إباحة تعدد الزوجات، أو الطلاق، أو السرقة، أو حد الزنا... فقد كفر، ولا ينفعه ترداده للفظ الشهادة. وهكذا الأمر فيمن يرى أن نظام الإسلام غير صالح لحكم المجتمعات، فإنه كافر مرتد بلا شك. قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾سورة الأحزاب/ ٣٦.

ولا يخرج المسلم من الإسلام ويدخل في الكفر باعتراضه على حكمة تشريع الله إلا إذا صار ذلك الاعتراض عقيدةً راسخة في قلب صاحبه.

٢- **الحكم بغير ما أنزل الله:** أنزل الله الشريعة، وأمر عباده أن يحكِّموها فيهم، ولم يجعل لهم الخيار في ذلك. ومن مقتضى الإيمان تنفيذُ أمره ونهيه، ولكن: هل يُعَدُّ كافراً من حكَمَ في قضيةٍ بغير حكم الله؟

والجواب: هناك ثلاث صور في هذه القضية:

أ- أن يحكم بغير شرع الله معتقداً أن ما حَكَمَ به هو الأحسنُ والأفضل. وهذا كفر بإجماع المسلمين؛ إذ فضَّلَ نظامَ البشر على شريعة رب العالمين.

ب- أن يحكم بغير شرع الله، معتقداً أن ما حكَمَ به مساوٍ لحكم الله. وهذا كفر بالإجماع كذلك؛ لأنه يساوي الله بخلقه في تشريع الأحكام.

ج- أن يحكم بغير شرع الله، ويعتقدُ أنَّ شرعه تعالى هو الحق وما عداه ليس كذلك، لكن شهوة النفس غلبته، فحكمَ بذلك. وهذا هو الذي قال فيه عبد الله بن عباس: (كفر دون كفر). أي أنَّ هذا الكفر لا يخرجه من ملة الإسلام.

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن المراد بشرع الله: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما سوى ذلك مُعَرَّض للخطأ والصواب.

٣- **الاستهزاء بالمسلم لإسلامه، ومعاداته لتمسكه بدينه**: كالاستهزاء بحجاب المرأة المسلمة الذي أمر الله به؛ لأن ذلك يعني الطعنَ بالآمر سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا شك فيه.

٤- **موالاة الكفار بإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنيات، والركون إليهم**، ومجاملتهم على حساب الدين، والأخذ بقوانينهم التي تخالف شرع الله.

٥- **الرضا بفشوِّ المنكر وانتشاره**: إن من مستلزمات الإيمان إنكار المنكر باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب. والمراد بإنكار المنكر بالقلب: كراهيته، وبغضه، وبغض فاعليه: فإن لم يكن شيء من ذلك، يكن الراضون بفشوِّ المنكر وانتشاره كفاراً وإن زعموا أنهم مسلمون.

فمن أحبَّ أن تتعرى النساء في الشوارع والمجتمعات العامة، ليمتِّعَ الناس أنفسهم بالحرام فهو كافر.

ولابد لنا أن نشير هنا إلى أن الذي يفعل شيئاً من الكفر ظناً منه أنه من الإسلام فليس بكافر، حتى تقوم الحجة عليه؛ ويَرُدَّ ذلك تعنتاً أو استكباراً ...

وكذلك لا يكون كافراً مَنْ فَعَلَ فعلاً مناقضاً للإيمان، وهو غير عالم أن فعله هذا مخرج له من الإيمان. فإن عَلِمَ وجَحَدَ وكابر، فقد كفر.

من ثمرات الإيمان بالله:

هناك ثمرات للإيمان كثيرة نذكر منها:

١- يشعر كل مسلم بالأمن والراحة والاطمئنان في الحياة الدنيا؛ لأنّه يعبد إلها واحدا، إنْ أطاعه أثابه، وإنْ عصاه واستغفره غفر له، وينال السعادة العظمى في القبر وفي العالم الآخر، يقول اللهﷻ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ سورة الأنعام.

٢- يستخلف اللهﷻ عباده المؤمنين، ويمكّن لهم في الأرض، قال تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ سورة النور/ ٥٥.

٣- تحل الخيرات وتكثر البركات عند من يؤمن بالله الإيمان الحق، ويتقي الله حق تقاته، ويوجهه الله لما فيه خيره في الحياة، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ سورة الأعراف.

٤- يلاقي الإنسان في حياته كثيرا من المشاق، والإيمان بالله أهم عامل من العوامل التي تجعل المسلم يجتاز كل ما يجده في طريقه من عقبات؛ لأنّه يؤمن أنّ

تلك العقبات تُكفّر سيئاته أو ترفع درجاته، والنبيﷺ يقول:

«عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

٥- يحب المؤمن بالله ربه تعالى، فيظل في طاعة له وعبادة توصله إلى محبته تعالى، فإذا أحبه الله أعطاه ما يريد، وأعاذه مما يكره، قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«..وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»(٢).

٦- يشعر المؤمن بالله بالعزة الحقيقية: فلا يخضع إلا لله، ولا يذل لغيره تعالى، قال سبحانه:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ سورة المنافقون.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد (باب: المؤمن أمره كله خير) حديث ٧٥٠٠، ص١٢٩٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: التواضع) حديث ٦٥٠١، ص١١٢٧.

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة: هو الاعتقاد الجازم بوجودهم اعتقاداً لا يتطرق إليه أي شك أو ريب فهو أصل من أصول الإيمان لا يتم إلا به قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ سورة النساء.

وقال رسول الله ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان:

«أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

والملائكة عالم لطيف لا يُدْرَكُ بالحواس: فهم مخلوقات نورانية، قد طهرهم الله من الشهوات: فلا يتناكحون ولا يتناسلون، ولا يتصفون بأوصاف البشر من الذكورة والأنوثة، والأكل والشرب والنوم، وقد نزههم رب العالمين عن ارتكاب الخطايا: فلا يعصون لله أمراً، وجرَّدهم من الأختيار، فلا يملكون اختياراً أو شيئاً منه كما يملك البشر، بل خَلقَهم مقسورين على طاعته، قال الله تعالى فيهم:

﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ سورة التحريم.

وتقوم الملائكة بتصريف شؤون العالم بإرادته ومشيئته تعالى.

الإيمان بالملائكة تفصيلي وإجمالي

من أصول عقيدتنا: الإيمان بالملائكة على التفصيل والإجمال:

---

(١) رواه مسلم، في أول كتاب الإيمان حديث ٩٣ ص٢٥.

١ – أمّا الإيمان التفصيلي بهم، فنؤمن بثلاثة من رؤسائهم وهم:

أ/ جبريل: وهو الموكّل بالوحي، وقد جاء ذكره هو وميكائيل في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ سورة البقرة. وهو الذي جاء ذكره في قوله تعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ سورة الشعراء.

ب/ ميكائيل: وهو الملك الموكّل بالقطر، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في آية سورة البقرة التي سبق ذكرها.

ج/ إسرافيل: وهو الملك الموكّل بالنفخ في الصور، قال ﷺ:

«كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ»(١).

وهؤلاء الثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل هم الذين ذكرهم النبي ﷺ في دعائه حين يستفتح صلاة الليل:

«اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِى لِمَا اخْتُلِفَ

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن (باب: من سورة الزمر) حديث ٣٢٤٣، ص٧٣٧.

فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

د/ مالك: وهو خازن النار. قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ سورة الزخرف/ ٧٧.

ه/ ملك الموت الموكّل بقبض الأرواح. قال تعالى:

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ سورة السجدة.

و/ حملة العرش. قال تعالى:

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ سورة الحاقة.

٢- أمّا الإيمان الإجمالي بهم، فنؤمن بكل ملك من ملائكة الله ممن لم يرد ذكرهم في القرآن ولا في السنة الصحيحة، ولكن ذكر من أصنافهم وأفعالهم فيهما أو في واحد منهما: فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين ذكرهم الله في كتابه الكريم فقال:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ سورة الانفطار. فنؤمن بهم وهم يكتبون الحسنات عن يمين الإنسان، ويكتبون السيئات عن شماله. قال تعالى:

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ سورة الرعد/ ١١.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: صلاة النبيﷺ ودعائه بالليل) حديث ٧٧٠، ص٣١٤.

وهذان الملكان يحرس أحدهما الإنسان من أمامه، والآخر يحرسه من خلفه.

وهكذا الأمر في الملائكة الموكلة بالجبال، وبالجنين في الرحم، والسؤال في القبر، والنار وإيقادها، والجنة ونعيمها...

كيف خلقت الملائكة:

لا نعرف كيف خُلِقت الملائكة؛ إذ لم يأتنا شيء من ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة. ومن الجهل أن نختلقَ شيئاً في كيفية خَلْقهم. ويكفينا أن نعلم أنها خُلِقت من نور وقد قال رسول الله ﷺ:

«خُلِقَتْ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»(١).

وكذلك لا نعلم شيئاً عن تفصيلات أحوالهم. والذي استأثر علمُه بذلك هو الله وحده والمؤمن الصادق الإيمان يقر بكل ما أخبر به الحكيم الخبير إجمالاً وتفصيلاً.

خلقت الملائكة قبل آدم:

نحن نؤمن ان الله ﷻ خلق الملائكة قبل آدم بدليل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ سورة البقرة.

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٢٩٤.

عدد الملائكة:

والملائكة عددهم كثير لا يعلمه إلا الله، قال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة المدثر.

وقال رسول الله ﷺ في حديث المعراج:

«فَرُفِعَ لي البيتُ المعمور، فسألتُ جبريل فقال: هذا البيتُ المعمورُ يصلي فيه كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك»[1].

سفير الرسل والأنبياء:

جبريل عليه السلام هو سفير الرسالة إلى سيدنا محمد ﷺ، نزل عليه بالقرآن الكريم فيما يقرب من ثلاث وعشرين سنة، قال الله تعالى في أمر القرآن الكريم:

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ سورة الشعراء.

وقد كان يأتيه في كل عام في رمضان يدارسه القرآن. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الإيمان (باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات) رقم ٢٥٩.

يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[1].

وكان ينزل إليه بغير القرآن يبلغه ما تمس الحاجة إليه.

وقد نزل غير جبريل على النبيﷺ -أيضا-، لكنّ نزول غيره كان قليلا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ»[2].

وقال رسول اللهﷺ:

«أتاني مَلَكٌ فسلم عليَّ نزل من السماء لم ينزل قبلها فبشرني أنّ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»[3].

قدرة الملائكة:

أعطى اللهﷻ الملائكة قدرة عظيمة لم يُعط البشر مثلها، ومن تلك القدرة:

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول اللهﷺ) حديث ٦، ص٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) حديث ٨٠٦، ص٣٢٦.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/ ١٣٤-١٣٥، والسيوطي بإسناد صحيح في الجامع الصغير، حديث ٩٣، ص١٥، خرّج أحاديثه: أبو مريم محمد بن علي جيلاني.

١- قامت بتدمير قوم لوط. وحين ينفخ (إسرافيل) في الصور نفخة واحدة، يصعق مَن في السموات ومَنْ في الأرض إلا من شاء الله.

٢- أعطى الله الملائكة قوة في الصعود إلى السموات العلا والهبوط منها، من غير أن تتأثّر بتصادم أو جاذبية: فهي تطير في هذا الكون بسرعة لا يعرف الإنسان مقدارها. وإذا كان الإنسان قد قاس سرعة الضوء، فقرر أنّ سرعته ١٨٦ ألف ميل في الثانية الواحدة، فإنّ سرعة الملائكة أكثر من ذلك، وهي لا تقاس بسرعة البشر، وقد أخبرنا بذلك القرآن الكريم، وكذلك النبيﷺ، قال الله تعالى:

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ سورة المعارج.

٣- للملائكة القدرة على التشكل بغير أشكالها. فهذا سيدنا جبريلعليه السلام يأتي إلى السيدة مريم بصورة بشر، قال الله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ سورة مريم.

وقد كان سيدنا جبريلعليه السلام يأتي إلى النبيﷺ بصورة أعرابي؛ فيسأل النبيﷺ أسئلة؛ ليعلّم الصحابة دينهم، وكان يأتي في أحيان أخرى بصورة الصحابي (دحية بن خليفة الكلبي)، وكان دحية جميل الصورة، وقد شاهد

عدد من الصحابة ذلك كله، ولم يعلموا أنّ السائل هو جبريل عليه السلام إلا بعد أن أعلمهم النبي ﷺ بذلك.

مراتب الملائكة:

لم تكن الملائكة في مرتبة واحدة في الفضل، بل درجاتهم متفاوتة: فمنهم الملائكة المقربون: كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومنهم دون ذلك في المنزلة. وقد كان النبي ﷺ يقول:

«اللهم ربَّ جِبْرائيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بإذنك، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

قال ابن قيم الجوزية –رحمه الله–:

((... فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل وكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم))[2].

ولقد أجمع العلماء على أن الملائكة الأربعة، وحملة العرش، والروحانيين، ورضواناً، ومالكاً هم أفضل الخلائق، وأن صحابة النبي ﷺ والتابعين والشهداء والصالحين هم أفضل من سائر الملائكة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه) حديث ١٨١١ ص٣١٤.

(٢) إغاثة اللهفان، ٢/ ١٢٢، تحقيق محمد سيد كيلاني، الطبعة الأخيرة ١٣٨١هـ-١٩٦١م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

أعمال الملائكة:

جعل الله أعمالاً خاصة للملائكة: فمنهم مَنْ وكَّله الله بأداء الوحي إلى الرسل: وهو جبريل عليه السلام، ومنهم مَنْ وكَّله الله بقبض الأرواح: وهو مَلَكُ الموت، وله أعوان من الملائكة، ومنهم مَنْ وكله الله بالنفخ في الصور: وهو إسرافيل، ومنهم الموكل بالمطر: وهو ميكائيل، ومنهم الموكل بأعمال البشر: وهم الكرام الكاتبون، ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها: وهو رضوان ومَنْ معه، ومنهم الموكل بالنار وعذابها: وهو مالك ومَنْ معه، ومنهم الذين يَسألون الناس في القبر وهما: منكر ونكير، ومنهم حَمَلَةُ العرش ... ويدل على أعمال الملائكة آيات كريمة، وأحاديثُ نبوية شريفة.

رؤية الملائكة:

حجب الله رؤية الملائكة عنا فلا نراهم، وكَشَفَ بعضَهم لبعض عباده: فرأى النبيُّ ﷺ سيدَنا جبريل عليه السلام على صورته: له ستمائة جناح، قد سدَّ الأُفق، وكان ينزل على صورة (دحية الكلبي) وهو واحد من الصحابة كان يُضرب به المثل في حسن الصورة، وأَتى بصورةِ رجل إلى النبي ﷺ وعنده عدد من الصحابة، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، وَوَضَعَ كفيه على فخذيه، وسألَ النبيَّ ﷺ عن (الإسلام) و(الإيمان) و(الإحسان) وعن (الساعة وأماراتها) وأجاب النبي عن ذلك. وبعد أن انطلق جبريل أخبرهم النبي ﷺ أن السائل هو جبريل عليه السلام، أتاكم

يعلمكم دينكم[1].

وكذلك تمثَّلَ جبريلُ لمريم بشراً سوياً فخاطبته وخاطبها.

من ثمرات الإيمان بالملائكة:

للإيمان بالملائكة ثمرات في حياة الإنسان نذكر قسما منها:

١- لما كانت الملائكة على ما ذكرنا من العظمة؛ فإن الإيمان بها يُثمر الإيمانَ بخالقها وهو الله ﷻ بعظمته وقوته وقدرته وسلطانه. وهو دليل على صدق الإيمان؛ لأنّ الملائكة من عالم الغيب، وليس من عالم الشهادة.

٢- شكر الله تعالى على ما أنعم على عباده؛ إذ وكل فيهم الملائكة الذين يقومون بحفظهم، ويقومون بأعمالهم التي وكلها الله بهم في الدنيا والآخرة.

٣- يورث الإيمانُ بالملائكة محبَتهم؛ لأنهم يستغفرون للمؤمنين، ويعبدون الله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ سورة التحريم.

٤- الإيمان بالملائكة يدفع صاحبه إلى الاستقامة على منهج الله، وعدم الانحراف عنه في قليل أو كثير؛ ذلك لأنّه يوقن بوجود ملائكة من حوله تراقب كل قول من أقواله، وعمل من أعماله، وتسجّل عليه الحسنات والسيئات. وهذا يدعوه إلى الاستقامة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا يخالف شيئا من ذلك سرا وعلانية.

---

(١) أنظر نص الحديث في صحيح مسلم في كتاب الإيمان (باب: الإسلام والإيمان) ١/ ١٥٧. وأبو داؤد في كتاب السنة (باب: القدر) ٧/ ٦٣. والترمذي في كتاب الإيمان (باب: ما جاء في وصف جبريل عليه السلام للنبي ﷺ). والنسائي، ٨/ ٩٧.

٥- تبيان القدرة الإلهية في خلق الملائكة التي تتمتع بقدرة عظيمة في تنفيذ ما تُكلّف به، وخلقهم في تلك العظمة تؤدي إلى تواضع الإنسان وعدم الاستكبار في الأرض،

٦- حين يؤمن المسلم بأن الملائكة خَلْقٌ من خَلْق الله، تتطهر عقيدتُه من شوائب الشرك. فهم ليسوا بآلهة ولا يستحقون العبادة: فقد كان من المشركين من يعبدهم، ويسجد ويتقربُ بالنذور لهم.

٧- يبعث الإيمان بالملائكة على تبيان مكانة الإنسان عند الله: فقد كرّمه، وأسجد له ملائكته -وهم من هم في طهر سريرتهم-. وهذا التكريم يحضّ الإنسان على سلوك طريق الهداية، والابتعداد عن طريق الغواية.

٨- إذا لاقى الإنسان في حياته المصاعب، وكثرت في طريقه المعضلات، وضاقت عليه الأرض بما رحبت...فإذا تذكّر أنّ لله ملائكة تؤنسه عند وحشته، وتصبّره وتواسيه عند مصيبته، وتبعث في نفسه الطمأنينة عند خوفه، وتشجعه على مواصلة السير في طريق الهداية إذا شعر بعجزه...وهكذا يشعر أنّه ليس وحده في هذه الحياة، فهناك من يسير معه من جنود السموات والأرض..وهذا الشعور يخفف عن كاهله ما يجده من عقبات في طريقه.

وهكذا يكون الإيمان بوجود الملائكة نعمة من أعظم النعم لدى المسلم.

لقد كرَّم اللهﷻ الإنسان، وأسجدَ ملائكتَه لآدم، وأعطاه من العلم ما لم يعط الملائكة. فكيف يرضى لنفسه أن يَعْبدَ الملائكةَ ويسجدَ لها وهي مخلوقةٌ وليست بخالقة؟!!

الجن:

الجن عالم خاص مستقل، يختلف عن عالم البشر وعالم الملائكة في أصل خلقتهم، ويختلف عن الملائكة في اختيار طريق الخير والشر، وقد سُمّوا جناً لاجتنانهم: أي استتارهم عن العيون، ومن ذلك سُمّي الجنين جنينا لاستتاره وعدم مشاهدته، قال تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾سورة الأعراف/ ٢٧.

والجن أجسام نارية عاقلة خفية، لها قوة التشكل. ولا نعرف عنها شيئاً إلا ما ورد في القرآن الكريم، والصحيح من الحديث النبوي الشريف. فقد ذكر القرآن أن الجن خُلِقتْ من النار، قال تعالى:

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الحجر.

وأنها سمعت القرآن من رسول اللهﷺ وهو لا يعلم بحضورها حين قراءتِه. وأنّها خلقت قبل البشر، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الحجر.

والجن مكلفون، فهم يُشبهون البشر في التكليف، وهم مطالبون بالإيمان بالله وعبادته وحده، ومنهيون عن الكفر والعصيان، وأن لديهم حريةً واختياراً. قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ سورة الذاريات.

ويدل على أنهم مكلفون –أيضاً– أن الله ﷻ لما ذكر الشياطين أمر

بالتحرز من شرورهم، وذكر ما أعدّ لهم من العذاب في الدار الآخرة. ولا ينال العذاب إلاّ من خالف الأمر والنهي، كما تحدث في ثواب الطائعين منهم، فقال تعالى على لسانهم:

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾سورة الجن.

والجن لا تعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، بل هي تجهل في بعض الحالات ما هو مشاهد أمام أعينها فكيف تعلم الغيب؟! فهذا سيدنا سليمان عليه السلام يموت مستنداً إلى عصاه وهي لا تعلم بموته، وظلت تعمل بأمره وتنصب، حتى أكلت حشرة الأرض عصاه التي كان مستنداً إليها حين مات؛ فسقط سيدنا سليمان على الأرض ... حينذاك علمت الجن بموته. وقد عمل على التلاعب بعقول قسم من النساء والبسطاء من الرجال: المشعوذون من هذا الطريق.

إنّ صاحب الإيمان الحق لا يلجأ إلى الجنّ ولا يُصدّق بما توحي به الشياطين، وقد قال الله تعالى:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ سورة الشعراء.

وقد ذكر القرآن الكريم ما قاله النفر المؤمن من الجنّ، فقال تعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾سورة الجن.

لذلك صار من الواجب على المسلم ألا يلجأ إلى الكهّان والمشعوذين ولا يصدق بهم؛ لأنّهم يكذبون عليه، ويبعدونه عن الإيمان الحق.

الشياطين:

الشياطين: هم العاصون من الجن، وتقوم بأعمال الشر والفساد في الأرض. وقد تمكنت من إضلال أمم كثيرة وغوايتها: فهي تقوم بالتفريق بين الأخ وأخيه، والزوج وزوجه. ومن أساليبها في التضليل تحسين القبيح حتى يراه الإنسان حسناً، وتقبيح الحسن حتى يراه الإنسان قبيحاً.

ولقد تكفّل كل واحد من الشياطين بواحد من البشر ليضله عن سبيل الله، وهذا ما يُعرف باسم القرين، وقد قال النبيﷺ:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ». قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ «وَإِيَّايَ إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ»[1].

والشياطين لا تملك أن تتسلط على عباد الله المتقين؛ لأنهم يلتجئون إليه سبحانه في كل صغيرة وكبيرة. قال تعالى متحدثا عن الشيطان:

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ سورة النحل.

وحين خرج إبليس عن طاعة الله طلب أن يبقيه إلى يوم القيامة؛ فأجابه رب العزة إلى طلبه:

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة الأعراف.

وهكذا يظل الشيطان يقوم بدور الفساد والإضلال إلى يوم القيامة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأنّ مع كل إنسان قرينا) حديث ٢٨١٤، ٤/ ٢١٦٧-٢١٦٨.

والشياطين ليست من الملائكة بدليل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾سورة الكهف/ ٥٠.

الإيمان بالكتب

أنزل الله عدداً من الكتب والصحف على رسله تتضمن عقيدة التوحيد، وأحكاماً وإرشادات وأوامرَ ونواهيَ ومواعظ؛ كي يسلك الإنسان طريق الخير: فأنزل كتباً على موسى وداؤد وعيسى ومحمد، وأنزل صحفاً على إبراهيم وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!

أمّا الكتب الأخرى التي جاء بها سائر الأنبياء والرسل، فلم نعرف عنها أي شيء كان، بيد أننا نؤمن بكل كتاب نزل من عند الله، عرفنا اسمه أو لم نعرف. وعلى هذا فإنّ الإيمان بالكتب السماوية ينقسم على قسمين: مجمل ومفصّل:

أمّا الإيمان المجمل بالكتب السماوية؛ فيكون بما أخبرنا القرآن عن كتب أنزلها الله على أنبيائه ورسله على وجه الإجمال، ولم يرد في القرآن أسماء تلك الكتب، ولا أسماء الرسل الذين نزلت عليهم، قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾سورة الحديد/ ٢٥.

وقال:

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾سورة الشورى/ ١٥.

ولهذا صار الإيمان بهذه الكتب واجبا، سواء عرف اسم الكتاب أو لم يعرف، وسواء عرف اسم الرسول الذي أُنزل إليه أو لم يعرف.

أمّا الإيمان التفصيلي، فيكون بمعرفة أسماء هذه الكتب وما تضمنته. والإيمان بهذا واجب أيضا على وجه التفصيل، والمصدر في ذلك هو القرآن الكريم وحده، فقد أخبرنا أنّ الله تعالى أنزل التوراة على سيدنا موسى، وأنزل الزبور على سيدنا داؤد، وأنزل الإنجيل على سيدنا عيسى، وأنزل القرآن على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكذلك أنزل صحفا على إبراهيم وموسى، وقد ذكر القرآن أسماء الكتب ومن أُنزلت عليهم من الأنبياء، فصار الإيمان بذلك على وجه التفصيل واجبا.

وأمّا الذي يحكم على هذه الكتب، ويبيّن صحيح آياتها من محرّفها، فهو القرآن الحكيم.

وحين أنزَلَ اللهُ الكتبَ على رسله –عدا القرآن الكريم– فإنه لم يتكفل بحفظها، بل استحفظ عليها أناساً، لكنهم لم يحافظوا عليها؛ فحصل فيها تبديل وتغيير.

القرآن الكريم:

القرآن الكريم: هو كتاب الله المنزَّل على محمد ﷺ باللسان العربي، المتعبد بتلاوته المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر. وقد تحدى الله فصحاء العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سُوَرٍ من مثله فعجزوا، ثم تحداهم أنْ يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثله فعجزوا أيضاً.

والقرآن الكريم: هو آخر الكتب السماوية، لا يُنسخ ولا يُبَدَّل. وقد نزل مُفَرَّقاً حسب الوقائع، أو جواباً عن أسئلة، أو حسب مقتضيات الأحوال في

ثلاثٍ وعشرين سنة. وتضمن خلاصةَ التعاليم الإلهية التي وردت في (التوراة) و (الإنجيل) و (الصحف)، وسائر ما أنزله الله على رسله. فهو كلمةُ الله الأخيرة الصالحة للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان إلى أن تقوم الساعة!

حفظ الله للقرآن الكريم:

تكفّل اللهﷻ بحفظ كتابه الكريم، فلا تمتد إليه يد بتحريف أو زيادة أو نقص منه منذ أن أنزله الله على رسوله محمدﷺ وإلى أن تقوم الساعة، قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الحجر.

ونقرأ عن النبيﷺ كيف كان يتلقى الوحي عن جبريلعليه السلام، فنراه يعجل في تلقي ما يلقيه الوحي إليه؛ لحرصه على حفظ ما ينزل إليه من آيات، فأرشده الله تعالى إلى عدم العجلة في ذلك، وأخبره بأنّه سبحانه هو الذي تكفّل بحفظه فقال تعالى:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة القيامة.

فكان حفظ القرآن وعدا من الله، والله لا يخلف وعده، وهو خير الحافظين. والقرآن الكريم كتاب عزيز: أي محفوظ من العبث به وفيه، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة فصلت.

والقرآن الكريم كله محفوظ عن أية زيادة أو نقص فيه، قال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ سورة الواقعة.

وقد روى عياض بن حمار المجاشعي أنّ رسول اللهﷺ قال في الحديث القدسي: قال الله تعالى:

«إنما بعثتك لابتليك وابتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظان»[1]. ومعنى ((لا يغسله الماء)): أي لا يستطيع أحد أن ينقص منه أو أن يحرفه؛ لأنّ الله تعالى هو الذي تكفّل بحفظه.

وقد قيّض الله سبحانه لتدوين كتابه كتبة أمناء عدولا قاموا بتدوين الوحي كما تلقوه من الرسولﷺ. وليس المراد بحفظ الله للقرآن حفظ بعضه، بل حفظ القرآن كله؛ لأنّ ضياع آية واحدة منه يعني عدم حفظ الله له.

لقد سُمّي ما أنزل الله على النبيﷺ بعدد من الأسماء منها اسمان مشهوران هما: القرآن والكتاب. أمّا اسم القرآن فإنّه يشير إلى الجمع اللفظي للقرآن، ومنها اسم الكتاب فيشير إلى الجمع الكتابي له.

ووسيلة القراءة أسلوب من أساليب الحفظ، وكذلك كتابته، فكان المسلمون يحفظون كتاب الله حفظا متقنا في صدورهم، ويكتبونه بالوسائل التي كان يُكتب بها آنذاك. وحفظ القرآن في المصحف هي الطريقة المعتمدة لكتاب الله، والحافظ لكتاب الله يرجع إلى المصحف بين آونة وأخرى ليتأكد من صحة حفظه. وهكذا نجد المحفوظ يحاكم للمكتوب..وهذا المصحف الذي بين

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة والنار (باب: الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) حديث ٢٨٦٥، ص١٢٤١.

أيدينا الآن هو المصحف الذي خطه صحابة النبيﷺ بحروفه وكلماته من غير زيادة فيه أو نقص منه، وكانوا يقرؤون فيه. وقد وصلنا هذا القرآن بالسند الصحيح المتصل المتواتر إلى رسول اللهﷺ عن الصحابة، وأخذه التابعون عنهم...وهكذا إلى أن وصل إلينا بكلماته وحروفه من غير زيادة ولا نقصان. وهذا الاتصال المسند قراءة وكتابة لم يتحقق لأي كتاب من كتب الله غير القرآن الكريم.

لقد اهتم المسلمون بحفظ كتاب الله، ونَقَلَه جمع عن جمع منهم يستحيل تواطؤهم على الكذب، ويستحيل -أيضا- أن يقع أي خطأ كان منهم صدفة. وهذا النقل بهذه الصورة يفيد العلم اليقيني القاطع بأنّ هذا القرآن هو كلام الله.

ومن حفظ الله للقرآن أن هيّأ ملايين من الناس من العرب والعجم، فقاموا بحفظه عن ظهر قلب، فلا يتطرق إليه أي خلل كان. فلو فرضنا -جدلا- أنّ مصاحف الدنيا كلها ذهبت، لاستطاع المسلمون أ ن يعيدوا كتابة القرآن كما هو بحروفه من غير زيادة حرف أو نقصان حرف، ومن غير تغيير حركة واحدة فيه..فقد حافظ المسلمون في حفظهم له على حركاته وسكناته، وهذا من حفظ الله، وليس بمقدور البشر أن يفعله.

إنّ منطق العقل السليم وحده يقضي بذلك، فكيف إذا انضمت شهادة العقل إلى شهادة النصوص الكثيرة من كتاب الله تعالى؛ فهل يكون عاقلا من يترك شهادة العقل والنقل؟!

إنّ اللهﷻ أنزل عددا من الكتب على عدد من الرسل، ولم يتكفل بحفظ كتاب منها، بل استحفظ عليها ناسا، لكنّهم ما رعوها حق رعايتها، فحدث فيها تغيير وتبديل وزيادة ونقص، وكلما حدث ذلك في كتاب من الكتب، يرسل الله رسولا آخر بكتاب آخر؛ ليصون الشريعة عن التحريف. ولمّا ختمت الشرائع بمبعث النبيﷺ تكفل الله بحفظ كتابه؛ لأنّ الإسلام هو خاتمة الشرائع: لا تُنسخ شريعته بشريعة أخرى؛ فلابد أن يكون كتابه محفوظا بحفظ الله، معصوما بعصمة الله له. وكل من يزعم أنّ القرآن الكريم زيدَ فيه أو نقص منه يُعدُ كافرا؛ لتكذيب الله في حفظ القرآن، وهذا ما أجمع عليه العلماء.

مقتضى الإيمان بالقرآن:

والإيمان بالقرآن الكريم يقتضي تحليل حلاله، وتحريم حرامه، والاعتبار بما ورد فيه من قصص، والتسليم لمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتحكيمه في كل قضية من قضايانا.

التوراة:

التوراة: هو الكتاب الذي أنزله الله على سيدنا موسىعليه السلام وهو لفظ عبراني معناه: (التعليم) أو (الشريعة).

والتوراة أعظم كتب بني إسرائيل:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾سورة المائدة/ ٤٤.

وحين صدَّق القرآن بالتوراة، فإنه لم يُصدِّق إلا بأصولها الأُولى التي أنزلها رب العالمين على سيدنا موسى عليه السلام. أما التوراة التي يتداولها الآن آهل الكتاب، فقد دخلها التحريف والتبديل منذ أمدٍ بعيد، وليس لها سند صحيح يتصل بسيدنا موسى عليه السلام. ويدل على ذلك التحريف والتبديل: أن التوراة المتداولة الآن بين اليهود هي غير التوراة المتداولة بين النصارى. والمسلم يؤمن بأصل التوراة الأولى التي أنزلها الله على سيدنا موسى عليه السلام، ولا يؤمن بالتوراة المتداولة بين القوم الآن.

هل للتوراة سند متصل[1].

ليس للتوراة سند متصل إلى سيدنا موسى عليه السلام ويدلنا على هذا ما ذُكر في آخر التوراة في أمر وفاة سيدنا موسى عليه السلام وكيف أقام بنو إسرائيل مناحة بعد وفاته.

إنّ الدارس لتاريخ التوراة يتبيّن له أنّها لم يكن لها ذكر في كثير من أزمان التاريخ؛ ذلك أنّ سيدنا موسى عليه السلام كان قد وضع نسخة التوراة مع اللوحين في التابوت، وبدأ الانحراف عن دينه يأخذ طريقه في الناس بعد وفاته، وتمكّن ذلك الانحراف في بني إسرائيل مع مرور الزمن، فظهر فيهم كفرة وفجرة ابتعدوا عمّا جاء به سيدنا موسى عليه السلام من عقيدة وشريعة وأخلاق، وظلّ هذا الأمر في انحرافه هكذا حتى جاء عهد سيدنا سليمان الذي حاول أن يعيد الناس إلى

(١) عن كتابنا: الإسناد الصحيح المتصل من خصائص الأمة الإسلامية ٥٣-٥٥.

الدين الحق، وقد فتح في عصره التابوت، فلم يكن للتوراة فيه وجود. وبعد عصر سيدنا سليمان عليه السلام وقعت الاضطهادات ببني إسرائيل، وتعرّض بيت المقدس للسلب والنهب مرّات عدة.. وزاد ذلك الانحراف حتى لقد بُني مذبح للأصنام في فناء بيت المقدس!! كل هذه المدة الزمنية الطويلة الأمد، ولم يكن للتوراة فيها أي ذكر كان، ولم تظهر أول نسخة للتوراة إلا بعد وفاة سيدنا موسى بمدة طويلة، وذلك حين آل الحكم إلى الملك (يوشيا بن آمون) حوالي ٦٢٦ - ٥٩٨ ق.م- وكان ميّالا إلى التدين، فانتهز الفرصة (الكاهن حلقيا) وكان معاصرا لـ(يوشيا)؛ فادعى بعد ثماني عشرة سنة من حكم (يوشيا) أنّه عثر على نسخة التوراة في بيت المقدس، وأعطاها (شافان الكاتب)..

ويقف الباحثون رافضين لما ادعاه (الكاهن حلقيا)؛ إذ لا يُعقل أن تظل التوراة هذه المدة الزمنية الطويلة في بيت المقدس ولا يراها أحد قبل عصر (يوشيا)، ولا خلال الثماني عشرة سنة من حكمه. يقول العلامة رحمة الله الهندي-رحمة الله عليه-:

((والنسخة التي وجدت بعد ثماني عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنة لا اعتماد عليها يقينا، ومع كونها غير معتمدة ضاعت هذه النسخة – أيضا- غالبا قبل حادثة بختنصّر. وفي حادثته انعدمت التوراة وسائر كتب العهد العتيق في صفحة العالم رأسا..))[1].

(١) إظهار الحق تأليف رحمة الله الهندي ص٤٣ الطبعة الثانية١٤٢٤-٢٠٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

ويعترف عدد من الكتاب أنّ التوراة التي يتداولها القوم الآن لم يقم بكتابتها كلها سيدنا موسى، فجاء في مقدمة الكتاب المقدس في الطبعة الكاثوليكية لسنة ١٩٦٠ ما يأتي:

((ما من عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقد أنّ موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنّه أشرف على وضع النص الذي كتبه عديدون بعده، بل يجب القول: إنّ ازديادا تدريجيا سببته مناسبات العصور التالية الاجتماعية والدينية [أُضيف للتوراة]))[1].

ولقد اتضح من دراسات كثيرة قام بها علماء ومؤرخون من ذوي الاختصاص: أنّ التوراة الموجودة الآن لم تكتب في زمان واحد، بل كتبت في أزمان مختلفة، وقام أكثر من كاتب بكتابتها. يقول رحمة الله الهندي:

((إنّ التوراة المشهورة ليست التوراة التي صنفها موسى، ولا التي كتبها (عزرا)، بل الحق: إنّها مجموع من الروايات والقصص المشتهرة بين اليهود، وجمعها أحبارهم في هذا المجموع بلا نقد للروايات))[2].

وهناك أقوال كثيرة أُخرى لمؤرخي العهد القديم، تنصُّ نصّا صريحا واضحا على عدم وجود سند متّصل للتوراة إلى سيدنا موسى، أو إلى من نسبت إليهم. وحين عجزوا عن ذكر السند المتصل لها قالوا: بأنّ التوراة كتبت عن طريق الإلهام بعد ضياع الأصول الأولى لها. ويحق لكل باحث منصف أن يسأل: متى

---

(١) العرب واليهود تأليف أحمد سوسة ص١٦٨.

(٢) إظهار الحق ص٤٣.

كان الإلهام المزعوم مصدرا من مصادر المعرفة.؟!!.

الإنجيل:

الإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام. وهو مصدق للتوراة ومتمم لها، قال تعالى:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ سورة المائدة.

وتَضَمَّنَ الإنجيل البشارة بمحمد ﷺ، وذِكْرَ شيء من صفاته، وصفةِ صحابته رضوان الله عليهم!

لكن هذا الإنجيل الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام لم يدوّن في وقت نزوله، والسبب في ذلك: أن حواريه وأصحابه عليه السلام، كانوا يعايشون حالة من الاضطراب؛ بسبب ما تعرّضوا له من اضطهاد على يد الدولة الرومانية. فلم يستطع أحد أن يدوّن (الإنجيل) خوفاً من عيون الدولة. لذلك لم يبدأ الناس بتدوينه إلاّ بعد ثلاثين عاماً من رفع سيدنا عيسى عليه السلام. وهناك رواية أخرى تذكر أن التدوين حصل بعد سبعين عاماً من الرفع. وفي هذه الأحوال كان أصل الإنجيل قد فقد. فلما بدأ الناس بتدوينه دخلت عليه إضافات ليست من الإنجيل في شيء، وصار الناس يتداولونها بعضهم عن بعض. فلم يكن (الإنجيل) المتداول الآن بين النصارى هو (الإنجيل) الذي أنزله الله – تعالى – على سيدنا عيسى عليه السلام، بل هي ذكريات شخصية كتبها الذين قاموا بتدوينه،

وضمنوها قسماً من الأقوال المنسوبة إلى سيدنا المسيح عليه السلام.

ونحن نؤمن بالإنجيل الأصل الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام، ولا نؤمن بالأناجيل التي يتداولها القوم الآن؛ ذلك أنَّ هذه الأناجيل لم يُعرفْ لها سند صحيح متصل إلى سيدنا عيسى عليه السلام. وقد اخْتِيرتْ هذه الأناجيل الأربعة من سبعين إنجيلاً وأُلغيت الأناجيل الأخرى، وذلك في (مجمع نيقية) سنة ٣٢٥م. أما الإنجيل الخامس الذي ظهر، فهو (إنجيل برنابا)، ويختلف اختلافاً كثيراً في صميم العقيدة النصرانية عن الأناجيل الأربعة.

هل للأناجيل سند صحيح متصل[1]

لا يجد الدارس للأناجيل سندا متصلا يصل الأناجيل بما أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام. فإنّ سيدنا عيسى كان قد اختار اثني عشر تلميذا وبلّغهم ما بلّغه جبريل إليه، لكنّ تلاميذه لم يدوّن واحد منهم ما ألقاه السيد المسيح عليهم، واكتفوا بحفظه في الذاكرة. وتمضي الأيام، ويزداد الاضطهاد للنصرانية، فيصير من الصعب أن يفرّق أحد بين ما ألقاه جبريل إلى سيدنا عيسى عليه السلام وبين كلام سيدنا عيسى نفسه: فلم يُدوّن الإنجيل في عهده عليه السلام، ولم يُدوّن إلا بعد أن رفعه الله إليه بمدة مديدة من الزمن. أمّا الذين قاموا بكتابة الأناجيل، فكانوا كثرة كاثرة، فقد كتب كل واحد منهم سيرة نبي الله عيسى وسمّاها إنجيلا. وتضاربت روايات الأناجيل حتى ما تكاد تجد إنجيلين يتفقان في ذكر حادثة واحدة. أمّا الأناجيل الأربعة التي يتداولها القوم الآن وهي أناجيل: (متى)

(١) عن كتابنا الإسناد الصحيح المتصل من خصائص الأمة الإسلامية ص٥٥.

و(مرقص) و(لوقا) و(يوحنّا)، فإنّها لم تُعرف إلا في (مجمع نيقية) سنة ٣٢٥م فقد اختاروها من بين نحو ٧٠ (سبعين) إنجيلا، وكل هذه الأناجيل منقطعة السند عمّن نُسبت إليهم، وذلك بسبب الاضطهاد المرير الذي أصاب النصرانية، حتى كاد أهلها يصيرون أُميين في شؤون كتابهم المقدّس. ولم يقع ذلك الاضطهاد على الناس -وحدهم- بل تعداهم إلى اضطهاد الكتب الدينية، فقاموا بإحراقها، وأقبلوا على الكنائس يهدمونها...فسرى الجهل بين الناس حتّى لم يستطيعوا أن يجتمعوا في أداء عباداتهم وتدارس عقيدتهم وشريعتهم. وإذا كانت الكنائس والكتب قد أصابها ما أصابها من الدمار بسبب ذلك الاضطهاد، فإنّ ما أصاب علماءهم الدينيين أكثر من ذلك: فقد قُتلوا شر قتلة من أجل محو الديانة النصرانية من الوجود، ودام ذلك الاضطهاد إلى أوائل القرن الرابع الميلادي؛ لذلك صارت الأناجيل الأربعة التي أخرجها القوم محل شك وريب لانقطاع السند بينها وبين من تُنسب كتابتها إليهم؛ إذ إنّ تلك الكتب لم يُكتب لها الذيوع إلا في القرن الرابع، وقد نسبت كتابتها في وسط وآخر القرن الأوّل. وهكذا يدخل الشك والريب في نسبة هذه الكتب إلى أصحابها؛ لأنّها منقطعة السند عمّن نُسبت إليهم أولا، وللتناقض الكبير بين إنجيل وإنجيل آخر بعد ذلك، مع العلم أنّ الإنجيل الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام هو إنجيل واحد..

إنجيل برنابا:

الإنجيل: هو كلام الله الذي أوحاه إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بوساطة جبريل (روح القدس). لكنَّ هذا الإنجيل لم يُدَوَّن إلا بعد أن رفع الله

سيدنا عيسى عليه السلام بمدة غير قليلة من الزمن. والذين قاموا بكتابة الإنجيل كانوا كثرة كاثرة؛ لذلك صارت روايات الأناجيل متضاربة، فلا تكاد تجد إنجيلين اثنين يتفقان في ذكر حادثه واحدة. وقد تنبه إلى هذه المأساة التي تهدد كيان النصرانية في الصميم رجالُ الكنيسة فأجمعوا على قبول أناجيل أربعة هي أناجيل: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. أما الأناجيل الأخرى فلم يأخذوا بشيء منها. ومن هذه الأناجيل التي تنكر لها رجال الكنيسة (إنجيل برنابا). وقد تداول هذا الإنجيل علماء الأمم الأوربية وأبدوا اهتمامهم به، على الرغم من عدم اعتراف الكنيسة به، مع أن قوة النسبة فيه لا تقل عمَّا في الأناجيل الأربعة. وبرنابا –كاتب الإنجيل–: إما أن يكون من الحواريين الأثني عشر، أو من الرسل السبعين. وسواء كان من هؤلاء أو اولئك، فإنه قديس من قديسيهم ورسول من رسلهم باتفاقهم هم.

ولما كانت العقيدة في إنجيل برنابا قريبة من العقيدة الإسلامية، فقد زعم قسم من المستشرقين والمنصرين أن مؤلفه رجل مسلم. والحوادث التاريخية تنفي هذا الزعم: فقد كان هذا الإنجيل متداولاً من قبل قسم من النصارى قبل ولادة الرسول ﷺ. فهذا (البابا جلاسيوس الأول) الذي تربع على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢م كان قد أصدر أمراً نهى فيه عن مطالعة عدد من الكتب، ومنها نهيه عن مطالعة (إنجيل برنابا).

ويختلف هذا الإنجيل عن الأناجيل الأربعة بأشياء كثيرة، من أهمها:

١- أن المسيح لم يكن إلهاً ولا أبناً للإله.

٢- وأن يسوع لم يصلب، وإنما الذي صلب هو (يهوذا) الخائن الذي شُبِّهَ لهم به.

ولا أزعم أن هذا الإنجيل هو الذي أنزله الله -كله- على سيدنا عيسى عليه السلام؛ لأنه يختلف بعض الاختلاف عن أصول القرآن العامة؛ ذلك أنّ برنابا لم يكتبه إلا بعد أن رفع الله عيسى إلى السماء بمدة من الزمن.

الزبور:

الزبور: هو الكتاب الذي أنزله الله على داؤد عليه السلام. ولم يأت بشرع جديد ينسخ به شرع موسى عليه السلام، بل كان عبارة عن مواعظ، وترغيب في المنافع، وتنفير من القبائح ... ويحتوي على مجموعة من الأناشيد والترانيم الدينية، المليئة بالمناجاة الربانية، والأدعية والأذكار.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ سورة النساء.

ويسمى (الزبور) عند أهل الكتاب بـ(المزامير)، وعددها ١٥٠ مزموراً. وليس في الزبور أحكام، بل هو أدعية وتضرعات وأناشيد. وقد أصاب الزبورَ ما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف. فنحن نؤمن بالزبور الذي أنزله الله على سيدنا داؤد عليه السلام، قبل أن يدخله تحريف وتغيير.

صحف إبراهيم وموسى:

نحن نؤمن أن الله عز وجل أنزل صحفاً على إبراهيم وموسى عليهما السلام. لكنَّ هذه الصحف فُقِدَتْ، ولم يبق شيء منها إلا ما أشار إليه القرآن الكريم، والحديث الشريف، قال الله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الأعلى.

وقال تعالى:

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة النجم.

القرآن نَسَخَ الكتبَ السماوية كلها:

نسخ القرآن الكريم كل ما يعارض أحكامه مما ورد في الكتب السماوية كلها؛ لأنّه لو لم يكن النسخ لجاز العمل بتلك الأحكام، وقد انعقد الاجماع على عدم جواز العمل بما يخالف أحكام القرآن

وعقيدتنا أن ما ورد في الكتب السماوية من أحكام ينقسم على ثلاثة أقسام:

١- ما صدقها القرآن فهي صحيحة فنؤمن بها.

٢- ما كذبها القرآن فهي باطلة، ونعتقد أن ذلك مما حرفه البشر من كلام الله.

٣- ما سكت عنه القرآن فنسكت عنه؛ حتى لا نكذب بحق أو نصدق بباطل، فقد قال رسول اللهﷺ:

«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: [آمنا بالله وما أُنزل إلينا

وما أُنزل إليكم ...]»[1].

من ثمرات الإيمان بكتب الله:

١- تبيان عناية الله بخلقه ورحمته بهم؛ إذ جعل لكل قوم كتاباً ليهديهم إلى ما فيه خيرهم في دنياهم وأُخراهم.

٢- تبيان حكمة الله؛ إذ جعل سبحانه لكل أُمة ما يناسبها من الكتب، وجعل القرآن العظيم نظامَ حياة، صالحاً للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان.

٣- شكر الله تعالى على هداية الناس بهذه الكتب.

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (باب: الأحكام التي تعرف بالدلائل رقم ٧٣٦٢ من فتح الباري.

الإيمان بالرسل

أرسل الله عدداً من أنبيائه ورسله إلى الناس لتعريفهم بالله، ودعوتهم لعبادته وحده. وقد بلَّغَ هؤلاء الرسالة وأدّوا الأمانة ونصحوا الأمة، وجاءوا بمعجزات باهرات تدل على صدقهم، فأصبح تصديقُهم واجباً، ومناصرتهم فرضاً، والإقتداءُ بهم لازماً.

والإيمان بالرسل أصل أصيل من أصول الإيمان، قال الله تعالى:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ سورة البقرة.

ويصف القرآن من لم يؤمن بالرسل بالضلال البعيد فقال تعالى:

﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ ﴾ سورة النساء.

لماذا تعددت الأنبياء وتعدد الرسل:

عندما نقرأ تاريخ الأنبياء والرسل، نرى أن اللهﷻ أرسل نبياً بعد نبي أو رسولاً بعد رسول لأحد الأسباب الآتية:

١- أن تكونَ دعوةُ الرسول المتقدم قد اندرست، أو أصابها ما أصابها من انحراف أو نسيان؛ فتظهر الحاجة إلى عرض رسالته على الناس من جديد؛ فيرسل رسولاً آخر ليقوم بالمهمة نفسها التي قام بها الرسول الذي تقدمه في الزمن.

٢- أن تكون رسالة النبي المتقدم غير تامة؛ فيرسل الله رسولاً آخر لإتمامها.

٣- أن تكون رسالة النبي المتقدم منحصرةً في أمة خاصة، وتكون أُمم أُخرى بحاجة إلى رسالة ذلك الرسول؛ فيرسل الله رسوله إلى الناس كلهم كما كان في رسالة محمد ﷺ؛ إذ أرسله الله إلى الناس كافة، وجعل رسالته خالدة باقية إلى أن تقوم الساعة.

عدد الأنبياء والرسل:

أرسل الله ﷻ قبل سيدنا محمد ﷺ عددا كثيرا من الرسل، منهم من قصّ الله على نبينا شيئا عنهم، ومنهم من لم يقصص عليه. قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ سورة غافر/ ٧٨.

ولقد بعث الله في كل أمة رسولا يبشر قومه وينذرهم؛ لتتم الحجة عليهم يوم القيامة. قال الله تعالى:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة فاطر.

وقال:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ سورة الإسراء.

وكل رسول من الرسل أرسله الله إلى قومه خاصة، إلا ما كان من رسول الله محمد ﷺ فقد أرسله إلى الناس عامّة بشيرا ونذيرا.

ويجب على كل مسلم أن يؤمن برسالة كل رسول ورد ذكره في القرآن

الكريم، وأخبرنا به رسول الله محمدﷺ، ولا يجوز للمسلم أن يُكذّب أي رسول ورد ذكره في القرآن، فإن كذّب فيصير كافرا مرتدا.

أمّا عدد الأنبياء والرسل، فيحدثنا عنهم رسول اللهﷺ بما رواه أبو هريرةرضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا» وقال مرة: «خمسة عشر».

وفي رواية أبي أمامةرضي الله عنه قال: قال أبو ذر: قلت يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال:«**مائة ألف وأربع وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا**»[1].

ولقد عدد لنا القرآن الكريم أربعة وعشرين رسولاً هم:

١	آدم	٢	إدريس	٣	نوح	٤	هود
٥	صالح	٦	إبراهيم	٧	لوط	٨	إسماعيل
٩	اسحق	١٠	يعقوب	١١	يوسف	١٢	أيوب
١٣	شعيب	١٤	موسى	١٥	هرون	١٦	يونس
١٧	داؤد	١٨	سليمان	١٩	الياس	٢٠	اليسع
٢١	زكريا	٢٢	يحيى	٢٣	عيسى	٢٤	محمد

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!

وقد ذكرت أسماء ثمانية عشر منهم في سورة الأنعام، قال تعالى:

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، رقم ٢٦٦٨، الجلد السادس، ص٣٥٩، الطبعة الأولى ١٤١٦-١٩٩٦، مكتبة المعارف، الرياض.

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ سورة الأنعام.

أما الستة الباقون، فقد ورد ذكرهم في آيات متفرقة من القرآن الكريم.

أولو العزم من الرسل:

مهمة رسل الله في تبليغ شرع الله إلى الناس شاقة تكتنفها العقبات من هنا وهناك. ويتفاوت الرسل في الأذى الذي يصيبهم. فهناك منهم من ظلّ القرون بعد القرون يدعو إلى الله، متخذا أساليب شتى في هداية قومه، ومع ذلك لم يؤمن بدعوته إلا قليل كنوح عليه السلام، وهناك منهم من ظلّ يدعو إلى الله: يبشّر بدعوته وينذر متحديا عقيدة عبادة الأصنام والأوثان فحكموا عليه بالتحريق بالنار كما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وهناك من عانى ما عانى من تجبر فرعون ومخالفات بني إسرائيل كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام. ولا تسل عمّا لاقاه سيدنا عيسى عليه السلام من بني إسرائيل حتى همّوا بقتله، وما لاقاه سيد الرسل محمد ﷺ، حتى اضطروه وقومه إلى الهجرة. لاقى هؤلاء الرسل ما لاقوا وظلّوا ثابتين ثبات الشم الراسيات، صابرين على ما أصابهم من أذى قومهم ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ سورة آل عمران.

هؤلاء هم الذين يطلق عليهم علماء العقيدة اسم (أولو العزم من الرسل)، وقد ذكر الله اسماءهم في كتابه الكريم فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ سورة الأحزاب.

وقال:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ سورة الشورى/ ١٣.

وهؤلاء الرسل خمسة هم:

١- نوح ٢- إبراهيم ٣- موسى ٤- عيسى ٥- محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا. وقد خاطب الله رسوله محمداﷺ داعيا إياه أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فقال تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ سورة الأحقاف/ ٣٥.

تفاضل الأنبياء والرسل

نصّ الله تعالى في كتابه على أنّ الرسل والأنبياء متفاضلون وقد فضّل الله بعض الأنبياء على بعض فقال تعالى:

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ سورة الإسراء.

وقال تعالى:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

﴿دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾سورةالبقرة/ ٢٥٣.

وأفضل الرسل هم أولو العزم الذين مرّ ذكرهم.

وهذا التفاضل هو منحة من الله وفضل فضّل به بعض الرسل على بعض بإعطاء أحدهم خيرا لم يعطه غيره، أو برفع درجته أكثر من غيره، أو باجتهاد الرسول في العبادة والدعوة إليه أكثر من غيره: ففضل سيدنا نوحا حين جعله أوّل رسل أهل الأرض، وسمّاه عبدا شكورا، وفضّل إبراهيم باتخاذه خليلا، وفضّل موسى برسالاته وبكلامه، وبإعطائه التوراة، وفضّل سيدنا داؤد بإعطائه الزبور، وفضّل سيدنا عيسى بإعطائه الإنجيل، وفضّل سيدنا محمداﷺ بإعطائه القرآن.

ولقد فضّل الله محمداﷺ فجعله سيد ولد آدم، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، واتخذه الله خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، وأرسله إلى الناس كافة: عربهم وعجمهم، وهو خاتم الأنبياء فلا يبعث الله نبيا آخر بغير شرعه.

وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يقول اللهﷻ في قرآنه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ سورة البقرة/ ٢٨٥.

والجواب: إنّ المراد بالآية: حرمة التفريق بين رسل الله بأن يؤمن الإنسان ببعض الرسل دون بعض كما فعل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويدل على هذا قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ

سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ سورة النساء/ ١٥٠-١٥١.

ويدل على تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض حديث النبيﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1].

هؤلاء أختلف في نبوتهم:

هناك عدد من الناس أُختلف في نبوتهم، فعدَّهم قسم من العلماء من الأنبياء، ولم يعدّهم القسم الآخر، وهم:

١- **الخضر**: وهو صاحب موسى عليه السلام، وجاءت قصته في سورة الكهف. وقد ذهب الجمهور إلى أنه نبي، وذهب غيرهم إلى أنه عبد صالح وليس بنبي. ولكن يدل على نبوته قول الله تعالى حكاية عنه:

﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى** ﴾سورة الكهف/ ٨٢.

٢- **لقمان**: وقد ذكر في السورة التي تحمل اسم (سورة لقمان) وقد قال بنبوته قسم من العلماء، قال ابن كثير:

(والمشهور عن الجمهور أنّه كان حكيما وليا، ولم يكن نبيا...)[2].

٣- **ذو الكفل**: وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، قال تعالى:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمدﷺ إلى جميع الناس) حديث ٣٨٦، ص٧٧.

(٢) البداية والنهاية ٢/ ١٣٤.

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ سورة الأنبياء:.

قال ابن كثير:

(الظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبيٌّ، عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً، وحكماً مقسطاً عادلاً، قال: وتوقف ابن جرير في ذلك. والله أعلم)[1].

٤- **عزير**: قال ابن كثير: ((المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل))[2].

ما يجب في حق الرسل:

لابد أن يتصف الأنبياء بصفات معينة، ويستحيل أن تنتفي أية صفةٍ كانت من هذه الصفات عن أي واحد كان منهم وهي:

١- العصمة: ومعناها أن الرسل محفوظة ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأية معصية كانت. فهم لا يقترفون ما يتنافى والخلق الكريم، ولا يتركون واجباً، ولا يفعلون محَّرماً بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة، فيحتمل أن تقع منهم مخالفات يسيرة لا تخل بمروءتهم ولا تقدح بكرامتهم ولا بشرفهم. فلو وقعوا بشيء مما نهى الله عنه، لكنّا مأمورين باتباعهم قال الله

(١) البداية والنهاية: ١/ ٢٦٧.

(٢) البداية والنهاية: ٢/ ٤٨.

تعالى في الرسل:

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ سورة الأنبياء.

أمّا بالنسبة إلى سائر البشر من غير الأنبياء والرسل فيما يبلغونه عن الله تعالى، فهم غير معصومين بهذا المفهوم مهما بلغ الواحد منهم من كثرة عبادة وطاعة وتقوى..حتى صحابة النبيﷺ -وهم أفضل خلق الله بعد الأنبياء والرسل- فإنّهم غير معصومين، ويدل على هذا قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ سورة النساء.

فلو كان أي إنسان معصوما لوجب الرد عند التنازع إلى الله وإلى الرسول وإلى الأئمة!.

وتأمّل -مرة أخرى- في أمر العصمة المدعاة لأناس من البشر منذ ولادتهم وإلى وفاتهم، فلا نرى في ذلك شيئا من المديح لهم أو الثناء عليهم، بل نراها على العكس من ذلك تنقيصا من شأنهم وإساءة لهم؛ لأنّ الله تعالى خلق الإنسان مختارا: يقدم على الخير والشر بإرادته واختياره، والقول بعدم ارتكاب هذا أو ذاك من الأئمة معصية، يعني أنهم فقدوا الإرادة في الإقدام على الخير، وهم بهذا يكونون قد فقدوا الاختيار، وهذا خلاف طبيعة البشر، والإنسان لا تُكتب له فضيلة عند الله إلا إذا أُعطي الاختيار، في الإقدام أو الإحجام على ما يريده الله

ويرضاه.

فإن قال قائل: إنّ العصمة تعني عدم الوقوع بالمعاصي مع القدرة على ذلك؛ لعلو منزلة الأئمة، وسمو أخلاقهم، وقدرتهم على منع نفوسهم من ارتكاب المحرمات، قلنا: إنّ هذه الصفات –لو وجدت– يُحمد عليها كل من تحلى بها: فهي ليست حكرا على ناس معدودين.

٢- الصدق: هو مطابقة الكلام للواقع. ورسل الله صادقون في كل ما يبلغونه عن الله، وفي كل قول يقولونه للناس، ويوفون بكل عهد يعاهدون به الأفراد والجماعات، وقد قال سيدنا موسى عليه السلام لفرعون –كما حكى ذلك القرآن الكريم–:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ سورة الأعراف.

وقال الله عز وجل في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ سورة النجم.

وقال –أيضا–:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة الحاقة.

فيستحيل على النبي أو الرسول الكذب؛ لأنه ينقل وحي الله إلى الناس.

٣- الأمانة في تبليغ رسالة الله من غير تحريف أو تبديل أو إخفاء شيء؛ إذ

الوقوع بشيء من ذلك خيانة. كما تشمل الأمانة ما ائتمنهم الناس على أموالهم وأعراضهم وأسرارهم...

٤- الفطانة: وهي حدة الذكاء، وعمق الفهم، ورجاحة العقل.. ولكل رسول من رسل الله مهمة عظيمة تتمثل في تبليغ شريعة الله للناس، ولا يستطيع الرسول ذلك إلا إذا كان حاد الذكاء، عميق الفهم، ويمتلك عقلا راجحا؛ ليتمكن من هداية الناس ونقض دعاوى الخصوم الباطلة: فيقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان. ومناقشة رسول الله إبراهيم عليه السلام للنمروذ الذي ادعى الربوبية، ومناقشته لقومه الذين عبدوا الأصنام من دون الله خير دليل على ذلك، قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ سورة البقرة.

وهكذا الايات التي وردت في سورة الأنبياء من الآية ٥١-٦٩.

٥- التبليغ: المراد بالتبليغ: إخبار الرسل الناس بما أمرهم الله أن يبلغوه لهم من عقيدة وشريعة وأخلاق، وعدم كتمان شيء من ذلك، فوجب على كل رسول من الرسل أن يقوم بذلك ولو تحمّل ما تحمّل في سبيل تبليغ رسالته من أذى وعذاب، قال الله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ سورة المائدة.

ولقد قام رسل الله بتبليغ شرائع الله على خير ما يُرام، وشهد لهم القرآن بذلك، قال تعالى:

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ سورة الأحزاب.

ولم يخف رسول الله محمدﷺ عتاب الله له في قصته مع ابن أم مكتوم، حينما جاء إلى النبي يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، والنبي الكريم مشغول بدعوة كبراء مكة إلى الإسلام، وألحَّ ابن أم مكتوم على النبي في ذلك، فأعرض عنهﷺ، فأنزل الله آيات تتلى معاتبا فيها محمداﷺ:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة عبس.

وهكذا ما كان من أمر زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة الذي تبناه رسول اللهﷺ قبل أن يكرمه الله بالرسالة: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ سورة الأحزاب/ ٣٧.

٦- السلامة من العيوب المنفرة: كل رسول من رسل الله هو صاحب

شريعة من الله، وقد أمره ﷻ أن يبلغها إلى الناس، ولا يستطيع أي رسول كان أن يفعل ذلك إلا إذا كان بإمكانه أن يجتمع بالناس ويخالطهم ليهديهم إلى طريق الجنة. وإصابة أي رسول كان بمرض منفر يتعارض مع مهمته في نشر دين الله. لذلك عصم الله رسله من الإصابة بمرض منفر كالجذام وسائر الأمراض التي ينفر منها الناس، وكذلك عصمتهم من الجنون أو الإغماء الطويل. أمّا ما ذُكر عن سيدنا أيوب عليه السلام من أنّه أصيب بمرض منفر فابتعدت عنه الناس، فهو من الاسرائيليات الباطلة التي لا أصل لها، ويحرم على المسلم الاعتقاد بصحتها.

الإيمان بالرسل لا يقبل التبعيض:

نحن نؤمن برسل الله كلهم لا نفرّق بينهم كما قال تعالى ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾سورة البقرة: ٢٨٥. فمن كَفَرَ بواحد من الرسل فقد كفر بالله. وهكذا يظهر الفرق بين المسلمين الذين يؤمنون برسل الله كلهم وبين اليهود والنصارى الذين لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ، مع أن رسلهم قد بشرت بالنبي محمد ﷺ، ودعت أممهم إلى الإيمان به. ولهذا ورد الذم من الله لهؤلاء فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾سورة البقرة/ ٩١.

الرسول بشر:

رسل الله من البشر يوحي الله إليهم بشرع، ويأمرهم بتبليغه إلى الناس بعد أن يُعدّ كل واحد منهم إعدادا خاصا لتحمل الدعوة وتبليغها، وقد قال ﷻ في سيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ سورة طه.

وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ سورة طه.

وهكذا الأمر في سيدنا محمد ﷺ، فقد رعاه الله وزكاه وأذهب عنه رجس الشيطان. ومع ذلك فإنّ رسل الله يتعرضون لما يتعرض له سائر الناس: فقد يسجنون كما سُجن يوسف عليه السلام، وقد يضطر إلى الهجرة كما هاجر سيدنا محمد ﷺ، وقد يبتليهم الله بذهاب المال والولد كما ابتلى سيدنا أيوب عليه السلام، وقد تُقتل رسل الله كما فعل بنو إسرائيل بعدد من أنبيائهم، وقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ سورة البقرة.

ولما كان كل رسول هو من البشر، فإنه قد يُصاب بالنسيان الذي لا علاقة له بتبليغ الدعوة، وهو يجتهد كسائر الناس في المسائل الدنيوية من الزراعة والحروب وغير ذلك، وكل رسول لا يعلم الغيب، وقد أيدهم الله بمعجزات باهرات تدل فيما تدل على صدقهم جاءوا به عن الله.

ما يجب على الأمة فيما يتعلق بالأنبياء والرسل:

لمّا كان الأنبياء والرسل قد اصطفاهم الله لتبليغ شريعته، وجبت أحكام

على الناس بحقهم، وهي ما يأتي:

١- وجوب الإيمان بهم على الإجمال والتفصيل.

أما الإيمان بهم إجمالاً، فيكون بالإيمان بهم كلهم سواء علم اسم كل واحد منهم أم لا. فلا يجوز أن نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم الآخر، فمن فعل ذلك صار من الكافرين.

وأما تفصيلاً، فبأن يؤمن بأن إبراهيم نبي، وكذلك كل الأنبياء المتفق على نبوتهم ...

والإيمان بالأنبياء إجمالاً وتفصيلاً قد نصّ الله عليه في القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ سورة البقرة.

فمن شك بنبوة من أجمع العلماء على نبوتهم فهو كافر، وأما من شك بنبوة من اختلف بنبوتهم كالخضر ولقمان فلا يكفر.

٢- وجوب طاعتهم: يجب على كل مكلف أن يطيع النبي الذي بعث فيهم. لأنّ طاعتهم من طاعة الله، وقد قال الله تعالى:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ سورة النساء/ ٨٠.

وقال:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ سورة النساء/ ٦٤.

ومعروف أن كل نبي يبعث في قومه خاصة، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ سورة الأعراف.

وأما رسالة محمد ﷺ فكانت عامة إلى البشر كله إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سورة سبأ/ ٢٨.

وقال النبي ﷺ:

«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ...»[1].

أما اتباع الديانات الأخرى بعد بعثة محمد ﷺ، فيجب عليهم -كلهم- الإيمان به والعمل بشريعته.

٣- وجوب توقيرهم:

يجب على كل مكلف أن يعظم الأنبياء ويوقرهم، ويحرم عليه أن يقول أي قول كان ينقص من قدرهم، كما يحرم أن يستخف بأي واحد كان منهم، فإن فعل ذلك فقد كفر؛ لأن الأنبياء فضلهم الله على البشر، وقد قال تعالى:

﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ سورة الأنعام.

فكل من انتقص واحداً منهم يكون قد كذّب القرآن.

٤- يجب أن نؤمن أنّ أنبياء الله ورسله هم أكمل الناس علما بالله

---

(١) رواه مسلم، ١/ ٣٧٠-٣٧١، طبعة الحلبي من حديث أبي هريرة.

وبشرعه، وأصدقهم حديثا، وأكملهم أخلاقا، وأنهم معصومون عن الخطأ فيما يبلغونه عن الله، ومنزهون عن الكذب والخيانة.

الحكمة من إرسال الرسل:

هناك حِكَم كثيرة من إرسال الله الرسل إلى الناس منها:

١- أرسل الله الأنبياء والرسل ليعرِّفوا الناس بربهم، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الأنبياء.

٢- أرسلهم ليبشروا المؤمنين المتقين الطائعين بنعيم مقيم في الآخرة، وينذروا الكافرين والعاصين بعذاب جهنم، وليقيموا الحجة على الخلق قال تعالى:

﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾ سورة النساء.

٣- أرسلهم ليكونوا قدوةً حسنةً في كل قول من أقوالهم وعمل من أعمالهم، قال تعالى:

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾ سورة الأحزاب.

٤- أرسلهم بعقيدة واحدة، وأمرهم أن يقيموا الدين بعقيدته وشريعته وأخلاقه ويحافظوا عليه، ونهاهم عن التفرق في الدين قال تعالى:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ سورة الشورى/ ١٣.

٥- أرسلهم ليبيِّنُوا للناس الأعمال الصالحة التي إن أخذوا بها زكت نفوسهم، وتطهرت من أدران الرذائل، وغرست فيها الفضائل قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ سورة الجمعة.

ختم النبوة:

ولقد ختمت النبوة والرسالة بسيدنا محمدﷺ، فلا نبي بعده ولا رسول، قال الله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ سورة الأحزاب.

وقال ﷺ:

«أنا خاتم النبيين لا نبيَّ بعدي»[1].

وقال:

«مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَة من زاوية من زَواياه، فَجَعَلَ الناسُ يطوفون به ويعجبون له

(١) رواه الإمام أحمد في باقي مسند الأنصار رقم ٢١٣٦١، وأبو داؤد في كتاب الفتن والملاحم رقم ٣٧١٠، والترمذي في كتاب الفتن رقم ٢١٤٥.

ويقولون: هلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنة؟ قال: فأنا اللَّبِنة، وأنا خاتم النبيين»[1].

فإذا كان نبي الله محمد ﷺ خاتم النبيين، فإنه -ولا شك- خاتم المرسلين؛ لأن خَتْمَ الأعم يستلزم ختم الأخص، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن محمداً ﷺ بُعثَ إلى الناس كافة، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة سبأ.

وقال:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ سورة الأعراف: ١٥٨.

فإذا كانت رسالته ﷺ إلى الناس كلهم، فلا بد أن تكون هذه الشريعة كاملة تامة، لا تحتاج إلى رسالة نبيٍّ آخر. فلا نبوة بعد نبوته ولا رسالة بعد رسالته.

على أن ما ذكرناه لا ينافي نزول سيدنا عيسى عليه السلام في آخر الزمان؛ لأنه حين نزوله يحكم بشريعة محمد ﷺ؛ لأن الشريعة الإسلامية جعلها الله صالحة للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان إلى أن تقوم الساعة.

بعثة النبي محمد ﷺ:

كان عدد من الأحبار والرهبان ومَنْ لهم معرفةٌ بالرسل والأنبياء، يتحدثون عن بعثة رسول منتظر. فهذا (سيف بن ذي يزن الحميري) يستمع إلى

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين)، ٤/ ١٧٩١.

نَسَب عبد المطلب المتصل بإسماعيل عليه السلام، فيبشره بأن النبيَّ المنتظر سيكون من نسله -أي نسل عبد المطلب-.

وهذا (قسُّ بنُ ساعدة الإيادي) يقول في خطبته المشهورة في سوق عكاظ:

(إن لله ديناً هو أحبُّ إليه من دينكم -أي دين قومه العرب- ونبياً قد حان حينه، وأظلكم أوانه).

وهؤلاء يهود المدينة كانوا يكثرون من إعلانهم عن قدوم نبي منتظر، ويتوعدون العرب بأنهم سيتبعونه، ويقتلون (العربَ) قتل (عاد) و (إرم) قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ سورة البقرة.

وهناك بعضٌ من الرهبان وغيرهم، استطاعوا أنْ يتحققوا من أنَّ محمداً ﷺ هو النبي المنتظر. فهذا الرسول الكريم -وقد تمَّ له من العمر اثنتا عشرة سنة- خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في سفره الأول، والتقى (أبو طالب) (بحيرا الراهب) الذي تفرَّس في محمد ﷺ فسألَ أبا طالب:

ما هذا الغلامُ منك ؟

أبو طالب: ابني.

الراهب: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حياً.

أبو طالب: فإنه ابن أخي.

الراهب: فما فعل أبوه؟

أبو طالب: مات وأُمُّه حُبْلى به.

الراهب: صدقت؛ فارجع به إلى بلدك، وأحْذرْ عليه يهود[1].

وهذا (النجاشي) يسمع آياتٍ كريمات يتلوها أمامه (جعفر بن أبي طالب)؛ فيبكي حتى يُبِلَّ لحيتَه ويقول:

(إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة)[2].

وهذا (عبد الله بن سلام) يتقدم إلى النبيﷺ لما قدم النبي المدينة ويتأملُ فيه. فلما تحقَّقَ من علاماتِ النبوة فيه أعلنَ إسلامه.

وهذا (زيد بن سعنة) وهو من أحبار اليهود، أَسلم لَمَّا تأكَّدَ من علامات النبوة فيه، وبايَعَ الرسولَ الكريم، وشهدَ معه مشاهد كثيرة حتى توفي في غزوة (تبوك) مقبلاً غير مدبر[3].

وهكذا الأمر في (سلمان الفارسي) و (مخيريق اليهودي) وغيرهم.

تغيير للبشارات:

لكن أهل الكتاب حسداً من عند أنفسهم، قاموا بتغيير البشارات التي يعرفونها في التوراة والإنجيل؛ لكي لا تكونَ للمسلمين عليهم حجة. ومع

---

(١) رواه الترمذي، ٤/ ٢٩٦. والبزار.

(٢) رواه الإمام أحمد برقم ١٧٤٠.

(٣) أخلاق النبيﷺ لأبي الشيخ، ص٨٣، تحقيق أحمد محمد مرسي. مكتبة النهضة المصرية / القاهرة ١٩٧٢.

ذلك فقد بقي في توراتهم وأناجيلهم ما يشيرُ إلى بعثة النبي محمدﷺ ويكفينا أن نعلم: أن كثيراً من العلماء المتقدمين رأوا بأمِّ أعينهم نصوصاً من التوراة والإنجيل، تنص نصاً واضحاً على نبوة سيدنا محمدﷺ، بل تنص نصاً صريحاً على أن اسم النبي المنتظر هو محمد: كابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ والماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ، والفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، وغيرهم كثير. وقد جادل هؤلاء العلماءُ أهلَ الكتاب، وأقاموا عليهم الحجة ... لكنهم بمرور الزمن، أخفوا هذه النصوص، وحرَّفوا فيها. فهذا العلامة ابن تيمية ينقل لنا نصاً من (سفر دانيال) في نعت النبيﷺ فيقول:

(وقال دانيال النبي أيضاً: فلا يزالون ملعونين (بني إسرائيل) عليهم الذلة والمسكنة، حتى أبعثَ نبيَّ بني إسماعيل الذي بَشَّرت به هاجر، وأرسلتُ إليها ملاكي وبشرها، وأُوحي إلى ذلك النبي، وأُعلمه الأسماء، وأُزينه بالتقوى، وأجعل البرَّ شعاره، والتقوى ضميره ... أُسري به إليَّ، وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلوَ فأدنيه وأُسلّمُ عليه، وأُوحي إليه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة ... فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي فيكذبونه ويؤذونه...)

قال ابن تيمية: (وهذه البشارةُ الآن عند اليهود والنصارى يقرأونها ويقولون: لم يظهر صاحبها بعد)[1].

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دينَ المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ٤/ ٤-٥.

ومن البشارات التي وردت في التوراة:

(أن نبياً سيظهر في مكة، وأن اسمه يرتفع فيها، وأنه يركب الجمل، وأنه يحارب بالسيف، وأنه ينتصر هو وأصحابه، وانه يبارَكُ عليه في كل يوم (وهذا ما يفعله المسلمون عند التشهد)، وأن ملوك اليمن تأتيه بالقرابين، وأن علامة سلطانه على كتفه بقدر بيضة الحمام)[1].

وهذه البشارة واضحة كل الوضوح لا تحتاج إلى تعليق. بيد أن كثيراً من أهل الكتاب المعاصرين ينكرون هذه البشارة فلا بد إذن أن نستشهد بالتوراة التي يتداولها الناس الآن:

جاء في سفر التثنية ١٨:١٨ قول الرب لموسى:

(أُقيم لهم –أي لبني إسرائيل– نبياً من وسط أخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أُوصيه به ...)

وهذا النص مجمل. وفسره اليهود بأن رسولاً من ولد إسحق سيبعثه الله. وكأن اللهﷻ ألهم اليهود هذا التفسير للنص؛ لتظل البشارة باقية؛ لأنهم لو عرفوا أنّ النبيّ المبشر به سيكون من ولد إسماعيل، لأخفوا تلك البشارة، أو قاموا بمحوها. وقد أثبتت الأيام أنّ هذا النبي المبشَّر به هو محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

ونلاحظ هنا في قوله: (من وسط اخوتهم) أي ليس من بني إسرائيل، وإنما

---

(١) الإيمان تأليف عبد المجيد الزنداني ورفاقه، ص١١٥، الطبعة الخامسة، ١٤٠٧-١٩٨٧، دار القلم/ دمشق.

هو من اخوتهم العرب؛ لأن اليهود من ذرية إسحق، والعرب من ذرية أخيه إسماعيل. وقوله (مثلك) أي صاحب شريعة مثل موسى.

وأما قوله: (أجعل كلامي في فمه) أي يكون أمياً، وهذا ينطبق على النبي محمدﷺ، فهو يقرأ كتاب الله بفمه لا من مصحف، بخلاف الألواح التي نزلت على سيدنا موسىعليه السلام: فقد كان يقرأ منها. أمّا النبي محمدﷺ فيوحي الله إليه فيحفظه.

ويشير هذا النص بوضوح إلى النبي محمدﷺ. ويؤيده ما وَرَد في سفر أعمال الرسل من العهد الجديد ٧:٣٧:

(هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل: نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من اخوتكم له تسمعون).

ومن البشارات التي لا تزال موجودة في التوراة ما جاء في سفر التثنية ٣٣:٢:

(جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران، ومعه ألوف الأطهار، في يمينه نار شريعة لهم).

ولا ريب أن مجيئه من سيناء يشير إلى إعطاء التوراة لسيدنا موسىعليه السلام؛ إذ سيناء هو الموضع الذي كلّم الله فيه موسىعليه السلام وإشراقَه من ساعير، يشير إلى إعطاء الإنجيل للسيد المسيحعليه السلام، فإنّ (ساعير) هو الموضع الذي أوحى الله فيه لعيسىعليه السلام، واستعلاءه من جبل فاران يشير إلى إعطاء القرآن لمحمدﷺ؛ لأن فاران منطقة قرب مكة، سكنها إسماعيل جدُّ الرسول محمدﷺ.

وأما فيما ورد في العهد الجديد، فنقرأ في (إنجيل متى) الذي لا يزال القوم يتداولونه إلى يومنا هذا ٢١:٤٣:

(لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزعُ منكم، ويُعطى لأمة تعمل أثماره).

يتضح من هذا النص أن ملكوت الله يُنزع من (بني إسرائيل)، ويعطى لأمة أُخرى في ذرية إسماعيل: كما حصل بنبوة محمدﷺ.

ومن البشارات ما ورد في الإنجيل على لسان سيدنا عيسىعليه السلام:

((يأتي من بعدي الفاراقليط)).

وكلمة الفاراقليط كلمة يونانية، ومعناها: الحمد. فالكلمة إذن مشتقة من (أحمد). لكنهم أبوا أن يترجموها في الترجمة العربية، بل أبقوا الكلمة كما هي (الفاراقليط)؛ لتظل غير مفهومة للقارئ العربي، وكي لا يُعرف من الذي سيأتي بعد (المسيح)عليه السلام. وقد مضت القرون بعد القرون، ولم يأت بعد (المسيح)عليه السلام غير محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وهناك بشارات كثيرة أخرى في (التوراة) و (الإنجيل) في بعثة سيدنا محمدﷺ. ولولا خشية الإطالة لذكرت بعضاً منها.

وهذه قبسة من كتاب الزرادشتية، تنبئ عن بعثة النبي الموعود، وفيها إشارة إلى البادية العربية، وهي تنطبق على صفة النبي محمدﷺ جاء فيه:

(إنّ أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعُه فارس، ويُخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في

هياكلهم يولّون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم، وأنّ نبيهم ليكوننّ فصيحا، يتحدث بالمعجزات)[1].

المعجزات:

أكرَمَ اللهُ أنبياءه ورسله بخوارق العادات التي لا تعتمد على الأسباب المعتادة. ولا يستطيع البشر أن يأتي بمثلها –مهما تقدَّم في العلم والمعرفة– ليقيم بها الدليل على صدق نبوته ورسالته. كأنَّ الرسول يقول للناس: لقد أرسلني الله إليكم، وأعطاني معجزة أو معجزات؛ تصديقاً لي فيما أقول؛ لكيلا يتهمني أحد بالافتراء على الله. ومن تلك المعجزات: معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد ألقوه في النار العظيمة التي أوقدوها؛ فجعلها الله بَـرْداً وسلاماً عليه، وخرج منها سالماً لم يُصَبْ بأذى. وكانت معجزات سيدنا موسى عليه السلام كثيرة: فقد ألقى عصاه، فانقلبت إلى حيةٍ تسعى، وضربَ بها البحر؛ فانفلق له (من البحر) اثنا عشر طريقاً يبساً ... وكانت معجزات سيدنا عيسى عليه السلام كثيرة –أيضاً–: فقد أحيا الموتى بأذن الله، وأبرأَ الأكمَه والأبرص بأذن الله، وكان يخبر الناس بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم ...

وأما معجزات رسول ﷺ فهي كثيرة، منها: معجزة انشقاق القمر، والإسراء والمعراج، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته ... وقد

---

(١) نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، تأليف: فاضل صالح السامرائي، ص١٩٧، الطبعة الثالثة ١٤٣١-٢٠١٠، دار عمار، الأردن.

ورد ذلك بأحاديث صحيحة كثيرة. أما معجزته الخالدة الباقية، فهي القرآن الكريم.

من ثمرات الإيمان بأنبياء الله ورسله:

هناك ثمرات كثيرة للإيمان بأنبياء الله ورسله منها ما يأتي:

١- الاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم؛ لأنّهم يمثّلون القدوة الكاملة، والمثل العليا بكل خلق كريم، ومعصومون من كل خلق ذميم، ومن كل ما يُخل بالمروءة، وقد أمر الله محمداﷺ بالاقتداء بهداهم فقال تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾سورة الأنعام/ ٩.

وقال تعالى مرغبا بالاقتداء بالنبي محمدﷺ:

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾ سورة الأحزاب.

٢- يقوم أنبياء الله ورسله بذكر حقائق لا تُعرف عن طريق غير طريقهم..إنها قضايا علمية حقيقية خارجة عن إدراك الحواس. فهم يتحدثون حديث الصدق عن الموت والقبر والحشر وأهوال يوم القيامة، وسكان السموات من الملائكة...وكل ما يتحدثون به هو من الحقائق التي لا ريب فيها؛ لأنّها آتية من الله العليم الخبير. والقضايا التي يتحدّث بها الأنبياء والرسل تترك آثارها الطيبة في الاستقامة على منهج الله تعالى.

٣- طاعة الله وطاعة رسولهﷺ وطاعة أولي الأمر والوالدين بالمعروف إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الله، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ سورة النساء/ ٥٩.

٤- إنّهم القدوة في تبليغ شرع الله إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، والاقتداء بهم في الصبر والمصابرة وتحمّل المشاق والتضحيات الكثيرة من أجل إصلاح الناس وهدايتهم إلى الطريق الذي يريده اللهﷻ قال تعالى:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ سورة النحل/ ١٢٥.

٥- إنّهم القدوة في إصلاح الناس بالقول والعمل بالبدء بإصلاح النفس أولا، وبإصلاح أقربائهم بعد ذلك، وإسداء النصيحة للناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إعجاز القرآن:

المعجزة: أمر خارق لما اعتاده البشر، يأتي بها النبي المرسل من الله تصديقاً لدعواه.

ولكن كيف كانت معجزات الأنبياء قبل بعثة النبي محمدﷺ؟

كانت المعجزات التي أجراها الله على أيدي أنبيائه ورسله من جنس ما برعت به أقوامهم؛ لتكون الحجة ملزمة لهم. فحين أرسل الله موسى عليه السلام إلى قومه جعل معجزته من جنس ما برع به القوم آنذاك؛ إذ كان السحر منتشراً: فكانت عصاه تتفجر منها المعجزات: ألقاها أمام السحرة فإذا هي حية تسعى، وصارت تلقف ما يأفكه السحرة، وضرب بها الصخرة، فانفجرت منها اثنتا

عشرة عيناً. وكانت معجزة سيدنا عيسى من جنس ما برع به القوم آنذاك أيضاً: فأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله.

وحين أرسل الله محمداًﷺ كانت الفصاحة والبلاغة العربية قد وصلت أوجَها، فجعل الله معجزته القرآنَ الكريم، وتحدى العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سُوَرٍ من مثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا أيضاً، ثم قال رب العالمين:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة الإسراء.

وظل هذا التحدي قائماً، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

وفي هذا القرآن سر عجيب: وهو أنه (لا يَخْلَقُ على كثرة الردِّ): فلا يسأمُ قارئُه وسامعه من تلاوته وسماعه، على العكس من قراءة وسماع غيره من الكتب. وننظر في واقع الإنسان، فنراه إذا سمع خطبة فصيحة أو قصيدة بليغة يعجب بها أول الأمر، فإذا ازدادت قراءته لها قلَّ إعجابُه بها شيئاً فشيئاً حتى تصيرَ باليةً من كثرة ترددها. وليس كذلك القرآن الكريم؛ فإن المسلم كلما ازداد تلاوة له أزداد حباً له وإعجاباً به. فهو يقرأ سورة الفاتحة في كل يوم وليلة في الصلاة سبع عشرة مرة إذا صلى الفريضة وحدها. ويختم قراءة القرآن مرات ومرات: فما ينتهي من تلاوته حتى يعود إلى تلاوته مرة أخرى. ومع ذلك فلا يحسُّ القارئ للفاتحة وللقرآن بشيء من السآمة وصدق رسول اللهﷺ حين قال

عن كثرة تلاوة القرآن: «**...ولا يخلق على كثرة الرد...**».

ولقد اختلف العلماء في سبب الإعجاز على مذاهب، ومن أهمها:

١- إخباره بالغيب: ذكر القرآن الكريم كثيراً من الحوادث التي ستقع لمجتمعات بشرية. وقد تحقق ما أخبر به. من ذلك إخباره بهزيمة الروم -وهم أهل كتاب في فلسطين- على أيدي الفرس -وهم عبَّاد أوثان- ثم انتصار الروم عليهم بعد ذلك في بضع سنين. وقد فرح المشركون بذلك، وتوعدوا المسلمين أن يصيبهم ما أصاب إخوانهم من أهل الكتاب، وساء المسلمين ذلك. وقد سجل القرآن هذه الحادثة فقال:

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ سورة الروم.

وهذه الآيات الكريمة جاءت بصيغة لا تقبل التأويل ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ سورة الروم.

وقد تصَّور بعض من الناس أن الرسولﷺ وضع نفسه في امتحان عسير؛ إذ حدد الموعد بأقل من عشر سنين؛ إذ البضع في اللغة ما بين الثلاث إلى التسع. وقد تحقق الامر كما أخبر به القرآن الكريم. وتدل هذه الآيات دلالة واضحة: على أن هذا القرآن هو من عند الله، وليس من عند محمدﷺ.

ومن إخبار القرآن بالغيب: دخول المسلمين المسجد الحرام وقد تحقق،

وعصمةُ الله رسوله من القتل: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ سورة المائدة/ ٦٧، وقد تحقق على كثرة من حاولوا قتله صلوات الله وسلامه عليه.

٢- الإخبار عن الماضي بالأنباء الصادقة: كان رسول اللهﷺ أمياً لم يطلع على أقاصيص الأولين وكتبهم وسيرهم: فتحدث القرآن عن آدم وكيف خلق، وعن نوح وعناد قومه، وما كان بينه وبين ابنه الكافر، وعن الطوفان الذي حلّ بالناس. وتحدث عن إبراهيم ودعوته قومه إلى عبادة الله وحده وإلى تحطيمه الأصنام، ثم إلقائه في النار. وتحدث عن سليمان وعلمه بمنطق الطير، وعن يوسف وقصته مع أبيه وقومه وكيد إخوته له، وقصة سيدنا موسى التي وردت في القرآن في ثلاثين موضعاً، وقصة سيدنا عيسى من مولده إلى أن رفعه الله إليه ... فعلم من هذا أن ما ورد من هذه الأخبار كان عن طريق الوحي: وهو جانب من جوانب إعجاز القرآن قال تعالى:

﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا ﴾ سورة هود/ ٤٩.

٣- النظم والأسلوب والبلاغة: وصل القرآن الكريم قمة البلاغة في أسلوبه، وبديع نظمه، وتناسق كلماته، ووجوه إيجازه: فألفاظه فصيحة، وجُمَلُه وتراكيبه قد أُحكِمتْ إحكاماً لا يستطيعه أحد من العالمين، فوق ما نجده من حسن انتقاء الألفاظ، ودقة الاختيار، وفواصل القرآن، وارتباط الفاصلة بالنص القرآني ...

والقرآن الحكيم يعرض الحادثة الواحدة بطرق متنوعة، وفي كل طريقة

معنىً غير المعنى في الحادثة الأخرى. فلا يستطيع المتأمل في القرآن الكريم أن يجد نصين يتكرران ما لم يزد أحدهما معنىً أكثر من المعنى الذي تضمنه النص الآخر، على كثرة النصوص المتشابهة التي يسوقها القرآن الحكيم: ذلك لأن السياق القرآني يعرضها كل مرة عرضاً جديداً، مشيراً إلى تفصيلات لا نجدها في العرض الآخر. وهذا ما نجده في القرآن الكريم بكثرة كاثرة: كالآيات التي تتحدث في يوم القيامة، وصور النعيم والعذاب في الدار الآخرة، والمشاهد الكونية الكثيرة، وقصص الأنبياء ... وقد يكون التنويع في الآيات الكريمة بكلمة واحدة، أو بزيادة حرف واحد. وكمثال على هذا ما جاء في قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ سورة البقرة.

وقوله:

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ سورة إبراهيم.

وهاتان الآيتان تتحدثان في موضوع واحد يتعلق بما أنعمه الله على بني إسرائيل. أما الآية الأولى، فتتحدث بما منّه الله على بني إسرائيل؛ إذ نجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب: يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وأما الآية الثانية، فتتحدث في الموضوع نفسه، لكنها أضافت معنىً آخر بزيادة الواو في قوله ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ ، فما المعنى الذي أضافته؟

أما آية سورة البقرة، فقد حددت حقيقة العذاب: وهو تذبيح الأبناء واستحياء النساء، وأما آية سورة إبراهيم، فأشارت إلى أن العذاب كان أنواعاً كثيرة لم يقتصر على تذبيح الأبناء واستحياء النساء، بل هو –فوق ذلك– أنواع أخرى من العذاب. وهكذا اختلف معنى الآيتين حين زيد (حرف الواو) في سورة إبراهيم؛ فلا تكون إحداهما مكررة.

وهكذا يعرض القرآن الحكيم الموضوع كلّ مرة بشكل يُشبه الشكل الذي سبقه، لكنه يضيف معنىً آخر. وهذا –بلا ريب– لون من ألوان إعجاز القرآن؛ فسبحان من هذا كلامه!.

وننظر في القصص القرآني، فنجد صور عرضها متعددة، قد اختلفت في طرق سردها؛ إذ القرآن يسوق القصة كل مرة في جوٍ يختلف عن جو السياق الآخر، فتبدو كأنها قصة جديدة، مع أنّ الأشخاص هم الأشخاص، والحوادث هي الحوادث نفسها. ولكن الذي تغير هو سياق الآية الذي يدخل إلى النفس البشرية دخولاً لطيفاً؛ فيقع التأثر بها.

٤- العلوم الكونية: أشار القرآن الكريم إلى حقائق علمية سيكتشفها الناس فيما بعد فقال تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ سورة فصلت.

وحرف السين في قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يفيد الاستقبال. أي أن اللهﷻ سَيُري الناسَ دلائل واضحات في هذا الكون وفي النفس الإنسانية، على

أن هذا القرآن منزل من عند الله، وأن كل ما جاء به حق لا ريب فيه. وهكذا الأمر في قوله:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ سورة النمل/ ٩٣.

وقوله:

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة ص.

ويشاء الله أن يجعل غير المسلمين هم الذين يكتشفون كثيراً من الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، في القرنين التاسع عشر والعشرين، بعد أن تقدمت المخترعات، وضَرَبَ التقدم الحضاري بسهم وافر، وأكتشف الإنسان أجهزة حديثة أوصلته إلى اكتشاف تلك الحقائق العلمية. فَمَنْ الذي أعلمَ النبيَّ محمداًﷺ بهذه الآيات التي أشارت إلى حقائق علمية ما كان يعرفها أحد حين نزول القرآن الكريم لو لم يكن القرآن تنزيلاً من رب العالمين؟!

إن هذا الأمر هو الذي جعل بعضاً من علمائنا يقول: إن ما أشار إليه القرآن من حقائق علمية لون من ألوان إعجاز القرآن وحجتهم: أن القرآن لم يكن خاصاً بالعرب حتى يدركوا بلاغته وفصاحته وبيانه، وإنما هو كتاب أنزله الله إلى الناس كافة: عربهم وعجمهم، فيستطيع كل واحد منهم إدراك شيء من إعجاز القرآن في النواحي العلمية. ولقد وضع هؤلاء العلماء شروطاً في التفسير العلمي فقالوا: إن الآيات العلمية في القرآن الكريم لا تفسر إلا بالحقائق العلمية فلا تفسر بالنظريات، وإن التفسير العلمي يجب أن يكون على وفق أساليب اللغة العربية، كما يجب أن لا يعدلَ المفسرُ عن الحقيقة إلى المجاز إلاَّ إذا

تعذر حمل الآية على الحقيقة ... وقد أشار القرآن إلى حقائق علمية كثيرة، منها: ما أخبر به من أن الإنسان يضيق صدره إذا ارتفع في أعالي الجو قال تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ سورة الأنعام/ ١٢٥.

لقد كان الناس يظنون إلى عهد ليس بالبعيد: أنَّ الإنسانَ إذا ارتفع في أعالي الجو فإنه يتنفس الهواء العليل بسهولة. فلما صنع الإنسان الطائرة الحديثة وطار بها في أعالي الجو، وجد معضلةً تقف أمامه: وهي صعوبة التنفس، فيضيق صدره لقلة الأكسجين. وكلما ازداد صعوداً ازدادت صعوبةُ التنفس أكثر. فمن الذي أعلمَ محمداًﷺ بهذه الحقيقة العلمية لو لم يكن القرآن منزَّلاً من عند الله؟!!

ومن أمثلة الإعجاز القرآني قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة يونس.

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾. فلو قال القرآن: أتاها أمُرنا ليلاً لحق للناس أن يقولوا في هذا العصر: إن هذا القرآن من عند محمدﷺ. وهكذا الأمر لو قال القرآن: أتاها أمرنا نهاراً؛ لأن قيام الساعة سيكون في لحظة واحدة، ونحن نعلم أن الأرض التي تكون عندنا نهاراً تكون عند غيرنا ليلاً. لذلك كان القرآن الحكيم دقيقاً كل الدقة حين قال:

﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾: فتكون ليلاً عند القوم الذين عندهم ليل، ونهاراً عند الذين يكون عندهم نهار؛ لذلك قال الحكيم الخبير في نهاية الآية: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ومن الأمثلة العلمية على إعجاز القرآن قول الله تعالى:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧﴾ سورة النبأ.

الاستفهام في الآية استفهام تقريري، والآية تحمل حقيقة علمية لم تعرف إلاّ قبل مدة وجيزة من الزمن بالوسائل العلمية الحديثة التي لم يعرفها أحد قبل النصف الأخير من القرن العشرين. فقد تمكن العلماء من اختراع أجهزة تصوّر باطن الأرض بتقنيات دقيقة جداً؛ فتبين من تلك الصور أن الجبال مغروسة كالأوتاد في باطن الأرض، وأن ذلك الجزء المغروس مدبب كالوتد ليكون الجبل ثابتاً مكانه. ولولا ذلك لما كان للجبل من ثبات. وهذه الحقيقة العلمية لم يعرفها العرب ولا غير العرب حين نزول القرآن، ولم تكتشف إلاّ بعد منتصف القرن العشرين.

وهناك حقيقة علمية أخرى تتعلق بالجبال، أشار إليها القرآن الكريم وهي قوله تعالى:

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ النحل/ ١٥.

ويبدو من هذه الآية أن الجبال بجذور أوتادها المغروسة في باطن الأرض تقوم بحفظ توازن الأرض لئلا تميد بالناس. ولولا ذلك، لوقعت الزلازل

الكثيرة هنا وهناك، ولما استطاع الإنسان أن يعيش على الأرض العيش الاعتيادي.

ومما يدل على إعجاز القرآن قول الله تعالى:

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾ سورة الرحمن.

نزلت هذه الآية على النبي الأمي محمد ﷺ، ولم يكن أحد من العرب ولا غير العرب يعرف عن هذه الظاهرة أي شيء كان؛ ذلك أن مياه الأنهار العذبة تصب في البحار والمحيطات المالحة. لكن عذوبة تلك المياه تظل كما هي لا تمتزج بملوحة البحار والمحيطات مسافة طويلة، على الرغم من كثرة المياه المالحة وشدة ملوحتها. إنهما يتجاوران ويلتقيان، لكنهما لا يمتزجان، ويظل كل منهما محتفظاً بخصائصه ومكوناته الكيماوية بسبب ذلك (البرزخ) الذي هو الحاجز الذي يفصل بينهما، فلا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة والاختلاط. وقد اكتشفت بحيرات تحتوي على الماء العذب في باطن المحيطات مع أن الملوحة تحيط بالمياه العذبة من كل جانب.

والأعجب من ذلك أن المياه المالحة نفسها لا يختلط بعضها ببعض آخر إذا كانت نسبة الملوحة مختلفة بين الماءين المالحين، فيظل أحد الماءين طافياً فوق الماء الآخر لا يمتزج به. وهذه الظاهرة نراها واضحة كل الوضوح في مياه البحر الأحمر التي لا تمتزج بمياه المحيط الهندي عند (باب المندب) بسبب ذلك (البرزخ) الذي يفصل بين البحر والمحيط.

فمن أين لمحمد ﷺ هذا العلم لو لم يكن القرآن تنزيلاً من رب العالمين؟!

وهكذا الأمر في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإحساس بالألم وإنه يتركز في الجلد، وتسوية البنان، وحركة الأرض والجبال، وأطوار خلق الإنسان ... بل الآيات العلمية في القرآن الكريم وصلت إلى المئات وجاءت علوم القرن العشرين مؤيِّدةً لكل ما ورد في القرآن.

وإذا كان القرآن الحكيم قد أشار إلى حقائق علمية كثيرة، فإن غيره من الكتب المنزلة ليس فيها ما يشبه تلك الإشارات العلمية، ذلك لأنّ الرسالات التي سبقت رسالة الإسلام في الزمن جاءت لأقوام معينين ولم تجئ عامة إلى كل جيل من الأجيال. وكل رسالة من تلك الرسالات ينتهي العمل بها بإرسال رسول جديد. أما الشريعة الإسلامية، فقد أرادها الله أن تكون خاتمة الشرائع، وللبشر –كل البشر– إلى أن تقوم الساعة؛ لذلك جعل الله في هذا الدين كل ما يحتاجه الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فهو ليس لجيل دون جيل، بل هو للأجيال كلها، يهديهم إلى طريق الخير والرشاد.

وأخيراً: فإن إعجاز القرآن لا ينحصر في ناحية واحدة أو ناحيتين من هذا أو ذاك، بل هو معجز بكل ما فيه: بفصاحته، وبلاغته، وبيانه، وإخباره بالغيب، وإخباره عن الماضي بالأنباء الصادقة، وباشتماله على العلوم الكونية، وبإعجازه التشريعي ...

المـــوت

الموت ضد الحياة: وهو مفارقة الروح الجسد، وانتقال الإنسان من دار إلى دار. والذي بيده الموت والحياة هو الله ﷻ وحده، قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ سورة الزمر/ ٤٢.

والله ﷻ وكل قبض الأنفس إلى ملك من ملائكته يسمى ملك الموت، قال تعالى:

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ سورة السجدة.

ولِمَلَكِ الموت أعوان من الملائكة يعالجون نزع الأنفس من أجسادها، قال تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ سورة الأنعام: ٦١.

بقاء الروح وإدراكها بعد الموت:

تبقى الروح بعد الموت منعمة أو معذبة وهي تدرك وتسمع. ودليل نعيمها قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ

﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ سورة آل عمران.

وأما دليل عذابها وشقائها فقوله تعالى:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ سورة غافر.

وأما الدليل من الأحاديث، فأن المشركين لّما قُتِلوا يوم بدر، ناداهم رسول الله ﷺ بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بنَ فلان، ويا فلان بنَ فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنّا قد وجدنا ما وعدَنا ربُّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدَ ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمدٍ بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»[1].

وقال ﷺ:

«**إن الميت يَعرفُ من يغسله، ومن يحمله، ومن يدليه في قبره**»[2].

وكلما كان المسلم على جانب كبير من الإيمان والتقوى صار مَلَك الموت رفيقاً بقبض نفسه، فهو يستلها كما تستل الشعرة من العجين. وعلى العكس من ذلك فإن الكافر والمنافق يُعَذَّبُ حين تُخرجُ نفسه، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: قتل أبي جهل). البخاري مع الفتح ٧/ ٣٠٠ ورقم الحديث ٣٩٧٦.

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وأنظر تخريج الحديث في كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٦/ ٢٦٢٥ ورقم الحديث ٤٠٥٢.

«خرجنا مع النبيﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولّما يُلحَد. فجلس رسول اللهﷺ وجلسنا حوله وكأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين، أو ثلاثاً ثم قال:

«إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأنّ وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملكُ الموتعليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفسُ الطيبة، أُخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرجُ تسيلُ كما تسيل القَطرةُ من فيِّ السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيبِ نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون لهُ فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول اللهعزوجل اكتبوا كتاب عبدي في عليين، فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أُخرجهم تارة أخرى. قال: وتعاد روحه في جسده ... وان العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول:

أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الخبيث، فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾. فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى ثم يقال : أعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتطرح روحه (من السماء) طرحاً (حتى تقع في جسده) ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة الحج ، فتعاد روحه في جسده...»»[1]

الحياة البرزخية[2]

البرزخ في اللغة: الحاجز بين شيئين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة الرحمن.

---

(١) رواه أبو داؤد ٢/ ٢٨١ والحاكم ١/ ٣٧-٤٠ والطيالسي رقم ٧٥٣ والإمام أحمد والسياق له

(٢) حياة البرزخ هي الحياة التي تفصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهي حياة الانتظار ليوم القيامة.

والبرزخ في الشرع: ما يكون بعد الموت إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ سورة المؤمنون.

هناك حياة خاصة يعايشها الإنسان في القبر بعد سؤال الملكين له: من ربك؟ ما دينك؟ ما كنتَ تقول في هذا الرجل محمدﷺ؟

وفي ضوء إيمانه بالله واستقامته يكون قبره إما روضةً من رياضِ الجنة أو حفرة من حُفَر النار. والسؤال في القبر يكون للمكلفين، أمّا غير المكلفين كالصبيان والمجانين فلا يُسألون، يقول الرسول محمدﷺ:

«إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل -يعني محمداً ﷺ-؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: أنظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً. وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريتَ ولا تليت، ويضربُ بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»[1].

ضغطة القبر:

بعد أن يموت الإنسان ويدفن، يضغط عليه في قبره، وهذه الضغطة لا ينجو منها أحد، سواء كان مؤمنا طائعا لله أو عاصيا له، أو كان كافرا، ولكن هناك فارق بين ضغطة الإنسان المؤمن الطائع وغيره: فإنّ المؤمن الطائع لله

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري. وأنظر: صحيح مسلم ٤/ ٢٢٠٠-٢٢٠١.

يضغط ضغطة واحدة خفيفة، ثم ينفرج القبر عنه، وأمّا غيره، فإنّ الضغط الشديد يدوم عليه. ودليل هذا حديث رسول اللهﷺ:

«هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ -يعني سعد بن معاذ- وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ»[1].

عذاب القبر ونعيمه:

الدلائل على عذاب القبر ونعيمه التي وردت في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الصحيحة كثيرة، من ذلك قوله تعالى:

﴿ **وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾** ﴾ سورة غافر.

فقد نصّت الآية الكريمة على نوعين من العذاب ينالهما آل فرعون:

أمّا العذاب الأوّل، ففي قوله: ﴿ **ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا** ﴾.

وأمّا العذاب الثاني، ففي قوله: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ** ﴾.

ونجد النوع الثاني من العذاب معطوفا على النوع الأوّل. والعطف بالواو هنا يفيد التغاير، فإذا كان العذاب الثاني بعد قيام الساعة كما هو واضح من الآية، فإنّ العذاب الأوّل يكون –ولا شك– في القبر.

---

(١) رواه النسائي في كتاب الجنائز (باب: صفة القبر وضغطته) حديث ٢٠٥٧، ص٢٨٨، الطبعة الأولى ١٤٢٠-١٩٩٩، دار السلام.

الرسولﷺ يسمع أصوات المعذبين:

مما أعطى الله نبيّه محمداﷺ سماعه أصوات المعذبين في قبورهم، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، منها: ما رواه زيد بن ثابتﷺ قال: (بَيْنَمَا النَّبِيُّﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ -أي مالت عن الطريق ونفرت- فَكَادَتْ تُلْقِيهِ وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ. فَقَالَ «**مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ**». فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا.

قَالَ: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاَءِ؟**». قَالَ: مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ. فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَّ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**»)[1].

وعن أبي أيوب الأنصاريﷺ قال:

(خَرَجَ رَسُولُ اللهَّﷺ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَسَمِعَ صَوْتًا فَقَالَ «**يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا**»)[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول اللهﷺ (مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»)[3].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة (باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه) ٤/ ٢١٩٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة (باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه) حديث ٧٢١٥، ص١٢٤٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز (باب: الجريدة على القبر) البخاري مع الفتح ٣/ ٢٢٤.

وكان من دعاء النبيﷺ

«... **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[1].

هذه الأحاديث وغيرها –وقد بلغت حد التواتر– تدل دلالة واضحة على عذاب القبر أولا، وسماع النبيﷺ أصوات المعذبين ثانيا، قال الإمام النووي:

(اعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر ، وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا** ﴾ الآية وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبيﷺ من رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة، ولا يمتنع في العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزء من الجسد، ويعذبه، وإذا لم يمنعه العقل وورد الشرع به وجب قبوله واعتقاده)[2].

أمّا كيفية عودة الروح إلى الميت، وكيفية عذاب القبر، فنكتفي في ذلك بما صحّ عن رسول اللهﷺ، قال شارح العقيدة الطحاوية:

(وقد تواترت الأخبار عن رسول اللهﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا يتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول. فإن

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: ما يُستعاذ منه في الصلاة) حديث ٥٨٨، ص٢٣٨.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٩٧-١٩٨.

عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا)[1].

مثل عذاب القبر ونعيمه:

وما مثل عذاب القبر ونعيمه إلا كمثل النائم، يرى في عالم الرؤيا أنه يعذب، أو يسقط من شاهق جبل، فيصيبه ما يصيبه إذ ذاك من العذاب العظيم، ويرى إنسان آخر في عالم الرؤيا أنه يعيش في حديقة غناء، ووسائل السرور والراحة كلها متوافرة له. إن هذا العذاب أو النعيم الذي يشعر به الإنسان في عالم الرؤيا إنما يقع على الروح ولا ينكره أحد وهكذا الأمر بالنسبة لعذاب القبر. والله أعلم.

الموت نقلة:

حين تفارق الروح الجسد، تنطلق في هذا الكون الواسع الرحيب سابحة في مُلْك الله الذي لا تحده حدود، ولا تقيّده قيود. ذلك أن الروح لدى الإنسان الحيّ، تظل محبوسة في القفص الذي هو جسد الإنسان. وتستطيع الروح -بعد مفارقتها الجسد- أنْ تتصل بالأرواح الأخرى: تأنس بها وتناجيها، وتشعر بالألم أو النعيم. والموت في حقيقته انتقال من دار إلى دار، من المنزل الفاني في الدنيا إلى المنزل الآخر في (البرزخ). وقد رُوِيَ أن أحد الرجال المعروفين بالصلاح، حين ظنّ أن دنوّ أجله قريب، قام فاغتسل، وتطيب، وصلى ركعتين.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، ص٤٥١، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة الأولى الجديدة ١٤٢٧-٢٠٠٦، المكتب الإسلامي، بيروت.

ودخل عليه أهله بعد ساعات قليلة، فوجدوه قد مات وهو مستقبل القبلة، وعند رأسه ورقة كتب فيها هذه الأبيات:

قُـــلْ لإخـــوانٍ رأوْني ميّتـــاً
فَبَكـــــوْني وَرَثَـــــوني حَزَنـــــا
أتظنـــونَ بـــأني مَيْـــتُكم؟
لـــيس هـــذا الميـــتُ والله أنـــا
أنـا في الصـور وهـذا جسـدي
كـــان ثـــوبي وقميصـــي زمنـــا
أنـا عصـفورٌ وهـذا قفصـي
طـــرتُ عنـــهُ وبقـــى مرتهَنـــا
أحْمَـــدُ اللهَ الـــذي خَلَّصـــني
وبنـــى لي في المعـــالي مَسْـــكنا
لا تظنـوا المـوتَ موتـاً إنـه
لـــيس إلا نقلـــة مـــن ههنـــا

الإيمان باليوم الآخر

الحياة البشرية تنقسم على قسمين: دار عمل قصيرة، ودار جزاء خالدة. أما هذه الحياة الدنيا، فهي دار عمل، وأما الآخرة فهي دار الجزاء. وقد قضى الله منذ الأزل أن يثيب من عمل صالحاً، ويعاقب من عمل سوءاً. إنه عدل الله. ومن مقتضاه عدم التسوية بين المحسن والمسيء. وإذا كانت الدنيا ليس فيها ثواب كامل لمحسن، ولا عقاب كامل لمسيء، فقد أعدّ الله يوماً لمكافأة المحسنين وعقاب الكافرين ... أنه يوم القيامة، لكنَّ ناساً منذ نزول القرآن على قلب الرسول ﷺ كذبوا بوجود اليوم الآخر، فتولى القرآن مناقشتهم مناقشة عقلية. قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾سورة الحج.

وقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ

مَرَّةٍۢ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾.سورة يس.

وقال:

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

الساعة:

حدد الله تعالى زمناً لإنهاء نظام الكون. وعبّرَ القرآن عن هذه النهاية بلفظ (الساعة): وهي القيامة. وسميت ساعة، لأنها تحدث في وقت قصير من الزمن، فالساعة: هي الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم ويضطرب نظامه. والإيمان بوقوعها واجب، وإنكارها كفر وتكذيب لصريح القرآن. وقد أخفى الله موعدها، فلا يعلم ذلك أحد إلا الله، وهي تأتي بغتة، ويكون قيامها في يوم الجمعة قال النبيﷺ:

«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ

وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»[1]. وهناك علامات تحدث قبل وقوعها.

أشراط الساعة:

قبل أن تقوم الساعة تقع مجموعة من الأحداث. وقد أشار القرآن الكريم إلى قسم منها، وأشار رسول الله ﷺ إلى قسم آخر. وهذه الأشراط يُعبّرُ عنها بعلامات الساعة -أيضاً- وقد قسّمَها العلماء على قسمين:

العلامات الصغرى والعلامات الكبرى.

أ- **العلامات الصغرى:**

١- بعثة النبيﷺ وخَتْمُ النبوة والرسالة به.

٢- تضييعُ الأمانة.

٣- فشو الزنا، وشرب الخمر، والمنكرات، وكثرة النساء وقلة الرجال.

٤- حدوث الفتن والمصائب في المسلمين، ووجودُ المال الكثير في أيديهم مع عدم الشكر، وكثرة الموت بالزلازل والأمراض، وعقوق الأمهات، وارتفاع الأصوات في المساجد، وزعامة الأراذل من الناس.

٥- قلة البركة في الأوقات وقلة العلم الإسلامي الذي يدعو إلى العمل، والبخل بالخير، وكثرة القتل.

٦- أن يتحكم في الناس من لا يملك تربيةً عالية ولا أخلاقاً سامية، ويصبح أهل البداوة ورعاة الغنم من أهل الثروات الكبيرة والترف.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة (باب: فضل يوم الجمعة) حديث ١٩٧٦ ص٣٤٣.

ب- **العلامات الكبرى:**

١- خروج المسيح الدجال.

٢- نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، بعد أن بقي مدة طويلة في ملكوت الله.

٣- خروج الدابة ذات القوائم التي تُكَلّمُ الناس.

٤- خروج دخان كثيف يملأ ما بين السماء والأرض.

٥- طلوع الشمس من المغرب.

٦- خروج يأجوج ومأجوج.

٧- خسف بالمشرق.

٨- خسف بالمغرب.

٩- خسف بجزيرة العرب.

١٠- نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى أرض المحشر.

الصور:

وهو كهيئة البوق، وقد وضعَ إسرافيلُ فاه عليه ينتظر متى يُؤمَر فيَنفخ فيه. قال عليه الصلاة والسلام:

«كيف أنعمُ وقد التقمَ صاحب القَرنِ القَرْنَ وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فيَنْفخ»[1].

وينفخ في الصور نفختان: الأولى نفخة الفزع والصعق، فيموت كل الأحياء إلاّ مَنْ شاء الله، وأما النفخة الثانية، فهي نفخة البعث والنشور بعد

(١) رواه الترمذي في أبواب التفسير (من سورة الزمر) رقم ٣٢٤٣.

الموت. ودليل ذلك قول الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ سورة الزمر.

والقرآن الكريم سمّى النفخة الأولى بالراجفة، وسمّى النفخة الثانية بالرادفة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ سورة النازعات.

وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما بين النفختين أربعون ...»

قالوا يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟ قال: أَبَيْت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أَبَيْت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت[1].

وقد ذُكِرَ النفخ في الصور في عشرة مواضع في القرآن الكريم. ونحن لا ندري حقيقته، ولا كيف يكون النفخ فيه، لأن ذلك من الغيب الذي ما أطلعنا الله عليه، والخوض في تفاصيله والنفخ فيه هو رجم بالغيب من غير دليل. ونحن نؤمن به لوروده في القرآن الكريم، والصحيح من الحديث النبوي الشريف.

البعث:

البعث: هو إحياء الموتى بعد جمع أجزائهم وإخراجهم من قبورهم، فيأمر الله بالنفخة الثانية، فتعود الحياة إلى الأموات بعد أن بَلِيَ كلُّ شيء في الإنسان إلا

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة (باب: ما بين النفختين). ومعنى (أبيت): أي لا أستطيع أن أجزم: هل هي أربعون يوماً، أو أربعون شهراً، أو أربعون سنة.

عظماً واحداً: هو عَجْبُ الذنب، إذ منه يُعاد جسم الإنسان ... يعيد الله الناس، ليتم الفصل بينهم: فيثيب المحسن ويعذب المسيء. قال الرسولﷺ:

«كل ابن آدم تأكله الأرض إلاّ عَجْبُ الذنب، منه خُلق، وفيه يركب»[1].

وهكذا يُنزِل الله مطراً من السماء، فينبت عَجبُ الذنب، ويخرج إنساناً سوياً. وقد ذكر القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن البعث، وأحاديث شريفة، قال الله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ سورة النحل.

وقال الله تعالى في الحديث القدسي:

«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك: أما تكذيبُه إيّاي أن يقول اني: لن أُعيده كما بدأته، وأما شتمه إيّاي، أن يقول: اتّخَذ الله ولداً، وأنا الصمد الذي لم أَلِدْ ولم أولد، ولم يكن لي كُفُواً أحد»[2].

وأوّل من تنشق عنه الأرض هو رسول اللهﷺ فقد قال:

«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داؤد والنسائي ومالك في الموطأ.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير من سورة الإخلاص، باب (قول الله الصمد)، حديث ٤٩٧٥ ص٨٩٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: فضل نسب النبيﷺ) حديث ٢٢٧٨، ٤/ ١٧٨٢.

مَثَلُ إعادة خلق الإنسان من جديد:

وما مَثَلُ إعادة خَلْقِ الإنسان من جديد إلاّ كمثل النباتات التي تتساقط، فلا يبقى منها شيء إلاّ البذرة التي كانت مدفونة تحت التراب، فإذا نَزَلَ المطر عاد النبات مرة أخرى. قال الله تعالى:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الروم.

وقالﷺ لمن سأله: كيف يُحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟

قال: **«أما مَرَرْتَ بوادي أهلِكَ مَحْلاً؟ قال: بلى. قال: أما مررتَ به يهتز خضراً؟ قال: قلت: بلى ... قال: فكذلك يُحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقهِ»**[1].

الحشر:

الحشر: هو جمع الناس في الحياة الآخرة لموقف الحساب. فيجمع الله الناس -كلهم- ويسوقهم إلى أرض المحشر. ويكون الحشر للأنس والجن لأنهم مكلفون، ليجازيهم ربهم على ما قدّموا، ويكون للملائكة -أيضاً- ليقوموا بأعمالهم التي أناطها الله بهم. قال تعالى:

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ سورة مريم.

وقال:

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسند المدنيين برقم ١٥٦٠٣.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ سورة الإسراء .

وقال النبي ﷺ:

«يُحْشَرُ الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرْلاً. قالت عائشة: قلتُ يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً ينظرُ بعضُهم إلى بعض؟! قال: يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[1].

وبعد الحشر يُكسى العباد، وأوّل من يُكسى نبي الله إبراهيم عليه السلام، قال النبي ﷺ:

«... وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ»[2].

العَرض:

وقبل الحساب يكون العرض على الله وهو نوعان:

النوع الأول: العرض العام. فتعرض الخلائق كلها على الله، لا تخفى عليه منهم خافية.

النوع الثاني: العرض الخاص. ويتمثل في عرض معاصي المؤمنين عليهم، وتقريرهم بها، وسترهم عليها، ومغفرتها لهم. قال تعالى في العرض العام:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: الحشر)، حديث ٦٥٢٧ ص١١٣، ومسلم واللفظ له في كتاب الجنة و نعيمها وأهلها (باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة)، حديث ٧١٩٨ ص١٢٣٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: الحشر) ، حديث ٦٥٢٦ ص١١٣٠.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ سورة الحاقة.

وقال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ سورة الزلزلة.

وقال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلاّ سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان. فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلاّ ما قدّم، وينظر أشأمَ منه فلا يرى إلاّ ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلاّ النارَ تلقاءَ وجههِ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيّبة»[1].

وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها حديثاً عن النبي ﷺ يفرّق به بين العرض والحساب فيقول:

«ليس أحد يحاسب إلا هلك. قالت: قلت يا رسول الله جعَلني الله فداءَك ألـيس يقول الله ﷻ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؟ قال: ذاك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هَلَكَ»[2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: كلام الربﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم)، رقم ٧٥١٢، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة)، حديث ٢٣٤٨ ص٤١٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: فسوف يحاسب حسابا يسيرا)، حديث ٤٩٣٩ ص٨٨١، وأبواب أخرى، ومسلم في كتاب الجنة (باب: إثبات الحساب)، حديث ٧٢٢٧ ص١٢٤٥.

الحساب:

يجمع الله الناس في صعيد واحد، ويحاسب كل فرد منهم على ما عمل، بعد أن أحصت الملائكة ما أقدم عليه كل إنسان من عقيدة وأعمال. والحساب منه اليسير ومنه العسير. أمّا اليسير فيُعرض على العبد عمله، فيطلعه الله على سيئاته، ولا يطلع عليها أحدا، ثم يعفو عنه ويدخله الجنة.

وأمّا الحساب العسير فيكون بسؤال الله العبد عن كل صغيرة وكبيرة، فلا يستطيع أن يُقدّم العذر، فيفضحه بين الخلائق، ويأمر به إلى النار. وأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله الصلاة، وأول ما يقضى بين الخلائق من حقوق العباد في الدماء. قال رسول الله ﷺ:

«أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم: الصلاة. يقول ربُّنا ﷻ لملائكته -وهو أعلم- انظروا في صلاة عبدي: أتمّها أم نقصها؟ فإن كانت تامةً كُتِبَتْ له تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم» (١).

وقال:

«أول ما يُقْضى بين الناس في الدماء» (٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داؤد والنسائي والحاكم. أنظر: الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للسيوطي ١/ ٤٦٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: القصاص يوم القيامة) رقم ٦٥٣٣، ومسلم في كتاب القسامة (باب: المجازاة بالدماء في الآخرة) رقم ١٦٧٨.

والذي يتولى الحساب في هذه المحكمة هو الله رب العالمين بلا وساطة أحد. ويحاسب الله كل أمة على وفْقَ شريعتها بحضور نبيها، ويرحم الله المؤمن في هذا الموقف الصعب، فلا يناقشه الحساب.

والحكمة من الحساب: هو إظهار فضل الأتقياء الصالحين، وتبيان فضائح الكفرة والعصاة على رؤوس الأشهاد. وهذا العذاب الذي ينال الكفار والعصاة هو جزاء ما اعتقدوه من عقيدة فاسدة، وما أقدموا عليه من أعمال سيئة. ومن فضل الله وكرمه أن ضاعف الثواب أضعافاً كثيرة، وجعل العقاب جزاءاً وفاقاً.

نشر صحائف الأعمال:

ويأخذ كل إنسان كتاب أعماله، وفيه كل صغير وكبير من أعماله وأقواله، سواء كان ذلك في النور أو في الظلمة، وحده أو مع ناس آخرين. قال تعالى مشيراً إلى كتاب الأعمال:

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ سورة الكهف.

وقال تعالى:

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الإسراء.

ومن الناس من يأخذ كتابه بيمينه فيفرح بذلك أشدّ الفرح:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة الحاقة.

ومنهم من يعطى كتابه بشماله فيحزن أشد الحزن:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة الحاقة.

وروى أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون ممَّ أضحك؟**» قال: قلنا: الله ورسوله اعلم. قال: «**من مخاطبة العبد ربّه. فيقول: يا ربِّ، ألمْ تُجِرْني من الظلم؟ قال يقول:بلى. قال فيقول: فإني لا أُجيزُ على نفسي إلاّ شاهداً مني. قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيُختم على فيه. فيقال لأركانه: أنطقي. قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يُخلى بينه وبين الكلام. قال فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقاً فعنكنَّ كنتُ أناضل**» [1].

الميزان:

لله تعالى ميزان يزن به الحسنات والسيئات. فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة. قال تعالى:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق رقم الحديث ٢٩٦٩.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة الأنبياء.

وقال:

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الأعراف.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ سورة القارعة.

وقال رسول الله ﷺ:

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان،حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ: **«ما يبكيك؟»** قالت: ذكرتُ النارَ فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم: أيخفُّ ميزانه أم يثقل، وعند الكتاب حين يقال: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه: أفي يمينه، أم في شماله، أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وُضِعَ بين ظهري جهنم»** [2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: قول الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾) حديث ٧٥٦٣ ص١٣٠٥، ومسلم في كتاب الذكر (باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء).

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب السنة (باب: في ذكر الميزان). رقم الحديث ٤٧٥٥.

وبعد أن ينقضيَ الحساب يكون الوزن، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة.

والحكمة من الوزن: إظهار العدل، وبيان الفضل؛ إذ إنه يزن مثاقيل الذر خيراً أو شراً.

والإيمان بالميزان واجب، لما وَرَدَ من آيات وأحاديث في ذلك مما استأثر الله بعلمه، لكنا نقول: إذا كان الإنسان في العصر الحديث قد اخترع موازين للحر والبرد والكهرباء والماء ... أفيعجز خالق البشر عن وضع موازين لأعمال البشر من الحسنات والسيئات؟!!

الصراط:

الصراط: هو جسر ممدود على ظهر جهنم، يمرّ عليه الناس كلهم: مؤمنهم وكافرهم. أما المؤمن فيجتازه إلى الجنة بسرعة تتفاوت من مؤمن إلى آخر بمقدار إيمانه وأعماله الصالحة: فمنهم من يكون مروره كلمح البصر، ومنهم من يكون كالبرق، ومنهم من يكون مروره كالريح العاصف، ومنهم من يمر كالجواد، وناس يمرون هرولة، وناس زحفاً.

أما الكافر، فيترنح على الجسر ثم يسقط في النار؛ إذ تجذبه كلاليب جهنم فيسقط فيها، ولجهنم كلاليب لا يعلم عظمها إلاّ الله. يقول الرسولﷺ:

«يُضربُ الصراط بين ظَهْريْ جهنم، فأكون أنا وأمتي أولَ من يُجيز، ولا يتكلم يومئذ إلاّ الرسل. ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّمْ، سلِّمْ. وفي جهنم كلاليب مثل شوك السّعدان. هل رأيتم السّعدان؟ قالوا نعم يا رسول الله. قال

فإنها مثل شوك السّعدان، غير أنه لا يعلم ما قدْرُ عظمها إلا الله، تخطَفُ الناس بأعمالهم ...»[1].

والإيمان بالصراط واجب، وما أروع ما قاله الإمام الغزّالي:

(فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم، خفّ على صراط الآخرة ونجا، ومَنْ عدل عن الاستقامة في الدنيا، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعثَّرَ في أول قدم من الصراط وتردّى ...)[2].

ويذهب الدكتور عمر سليمان الأشقر إلى أنّ المؤمنين وعصاتهم والمنافقين هم الذين يُنصب لهم الصراط، أمّا الأمم الكافرة، فإنّها تتبع الألهة الباطلة، فتسير بهم حتى تهوي بهم في النار؛ مستدلا بعدد من أحاديث النبيﷺ[3]. يقول

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: معرفة طريق الرؤية) رقم ٤٥١ ص٩٢.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٥٠٧. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨-١٩٣٩.

(٣) كالحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدريﷺ عن النبيﷺ قال: « **...إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهَّ سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَّ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهَّ. فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهَّ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهَّ. فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللهَّ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. - قَالَ - فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ...»** صحيح مسلم حديث ١٨٣، ١/ ١٦٧.

الدكتور الأشقر:

(ولم أر في كتب أهل العلم من تنبّه إلى ما قررناه من أنّ الصراط إنما يكون للمؤمنين دون غيرهم من الكفرة المشركين والملحدين غير ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى، فإنّه قال في كتابه (التخويف من النار):

[واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ومشرك يعبد مع الله غيره فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط])[1].

القنطرة بين الجنة والنار:

بعد أن يعبر المؤمنون الصراط يقفون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصُّ الله من بعضهم لبعض، وبعد ذلك يؤذن لهم بدخول الجنة. يقول النبيﷺ:

«يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»[2].

الحوض:

أعدّ الله لكل نبي من الأنبياء حوضاً تشرب منه أمته قبل دخول الجنة. أما نبينا محمدﷺ، فقد خصه الله بحوض عظيم، يشرب منه مَنْ آمن بالله ورسوله واستقام على شرع الله، ومات على ذلك ولم يغيّرْ أو يبدّل. وهذا الحوض قد بلغ

---

(١) القيامة الكبرى، تأليف الدكتور: عمر سليمان الأشقر، ص٢٦٥، نقلا عن كتاب التخويف من النار لابن رجب الحنبلي ص١٨٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: القصاص يوم القيامة) حديث ٦٥٣٥، ص١١٣٢.

من السعة الغاية: عرضه مسيرة شهر، وماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وآنيته كعدد نجوم السماء أو أكثر، فيه ميزابان يصبان من الكوثر، مَنْ شربَ منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً. قال رسول اللهﷺ:

«حوضي مسيرة شهر. ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شربَ منه لا يظمأ أبداً» .

وفي رواية: **«مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الوَرِق... وذكر نحوه»** [1].

أما الذين لم يستقيموا على شرع الله فغيّروا وبدّلوا، فإنهم يُبعدون عن الحوض كما يبعد الغريب. يقول الرسول ﷺ:

«... وأنا فَرَطُهُمْ على الحوض[2] ألا ليُذادَنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم: ألا هلمّ! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول سُحقاً سُحقاً» [3].

وقد كثرت الأحاديث الواردة في الحوض، حتى بلغت حدّ التواتر، رواها بضعةٌ وثلاثون صحابياً، لذلك صار الإيمان بالحوض واجباً.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (باب: في الحوض)، حديث ٦٥٧٩ ص١١٣٨ ومسلم في كتاب الفضائل (باب: إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته)، حديث ٥٩٧١ ص١٠١٤.

(٢) فَرَطهم: متقدمهم إليه.

(٣) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: استحباب إطالة الغرّة والتحجيل في الوضوء)، حديث ٥٨٤ ص١٢٢، ومعنى سحقاً سحقاً: أي بعداً لمن غير بعدي.

الأعراف:

هي الأسوار التي تفصل بين الجنة والنار، يقف عليها أقوام قصرتْ حسناتهم عن دخول الجنة، ولم تبلغ سيئاتهم كثرةً تُدخلهم النار. وهؤلاء ينظرون إلى الجنة ويخاطبون أهلها، وينظرون إلى النار ويكلمون أهلها: فهم في هذا المكان يرجون رحمة الله بدخولهم جنته، ويخافون من النار، فيدْعون ربهم ألاّ يكونوا من أهلها. قال تعالى:

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ سورة الأعراف.

الشفاعة:

الشفاعة هي الدعاء المستجاب. وهي مظهر عظيم من مظاهر رحمة الله بمن شاء من عباده. ويملك الرسول ﷺ الشفاعة العظمى التي لا تكون إلا له: وذلك حين يسأل الله أن يفصل بين الخلائق، بعد ذلك الجهد والتعب الذي

يصيب الناس؛ ليتخلصوا من ذلك الموقف الرهيب، ويستجيب الله لرسوله ويقبل شفاعته، فعن أبي هريرة ﷺ قال:

«أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ يَجْمَعُ اللهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنْ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ وَمَا لا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ أَلا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ ائْتُوا آدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ ﷻ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللهُ ﷻ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ ﷻ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷻ

فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الأَبْوَابِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[1].

هذه هي الشفاعة العظمى للنبي محمدﷺ.

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب:ذرية مَنْ حملنا مع نوح)، البخاري مع الفتح، ٨/ ٣٩٥-٣٩٦، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها)، ١/ ١٨٤-١٨٦ واللفظ لمسلم.

مراتب الشفاعة:

وللشفاعة مراتب:

١- في فصل القضاء بين الخلائق لإراحة الناس من هول ذلك الموقف: وهي الشفاعة العظمى التي أعطاها الله لمحمدﷺ.

٢- يُدْخِلُ الله أقواماً بغير حساب: وهم السبعون ألفاً الذين لا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

٣- يخرج الله الموحدين من النار، بعد أن عُذِّبوا فيها مدة من الزمن يعلمها الله بسبب ارتكابهم الذنوب. وإخراج هؤلاء تكريم للشافعين.

٤- الشفاعة لقسم من الكفار ليخفف عنهم العذاب: كما هو الحال في (أبي طالب) الذي يُجْعَلُ في ضحضاح من النار، يغلي منه دماغه. وهذا أخف أنواع العذاب على الكفار.

٥- يرفع الله درجات ناس في الجنة بسبب الشفاعة.

ويشترك في هذه الشفاعة: الأنبياء، والعلماء، والشهداء، والصالحون.

للشفاعة شرطان:

ولا تكون الشفاعة إلا بعد أن يتحقق شرطان:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع.

الثاني: رضى الله عن المشفوع له.

وهذان الشرطان يرجعان إلى الله وحده.

ودليل الشرط الأول:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ سورة البقرة/ ٢٥٥.

ودليل الشرط الثاني قوله تعالى:

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ سورة الأنبياء/ ٢٨.

الغرور بالشفاعة:

لا يغترَّ أحد بالشفاعة فيمنِّي نفسَه بها من غير أن يقدِّم كثيرَ عمل خالص؛ ذلك أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله للشافع، وإذن الله غيب لا يعلمه إلا هو. فهي تنال مَنْ قلَّتْ حسناتهم عن سيئاتهم قليلاً: كمثل الطالب الذي يأخذ بالامتحان ٤٧ درجة مثلاً ودرجة النجاح ٥٠. فهو يحتاج إلى ثلاث درجات ليصل إلى النجاح. أما الذين حصلوا على درجات واطئةٍ جداً، فلا يفكر أحد في نجاحهم.

الجنة:

الجنة: هي الدار التي أعدها الله لمن آمَنَ به وعمل صالحاً. فهي دار الموحدين، ودار المتقين من عباد الله الصالحين، ودار المجاهدين في سبيل الله، ودار الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. وهي واسعة جداً: عرضها كعرض السماوات والأرض! ولا غرابة في هذا فإن الأرض يوم القيامة تبدل غير الأرض قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ سورة إبراهيم/ ٤٨.

والذي يدخل الجنة لا يخرج منها. وفيها يأكلون ويشربون، ويلبسون

ويتنعمون. وفي الجنة أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّى، ولهم فيها من كل الثمرات، وفي الجنة ما لا عين رأتْ، ولا أُذُنْ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ سورة الدخان.

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث في نعيم الجنة وأشجارها وثمارها وطعامها وشرابها، فقد أراد من ذلك أن يُقرِّبَ هذا النعيم إلى أذهاننا، وإلاَّ فإن نعيم الجنة أعظم مما نتصوره في دنيانا.

ويَنْزِعُ اللهُ ما في صدور أهل الجنة من غل، فيصيرون إخواناً على سُرُرٍ متقابلين، لا يصيبهم فيها تعب ولا ملل ولا ضجر. وأول من يدخل الجنة هو سيدنا رسول اللهﷺ. فهو أول من يدق باب الجنة، فيَفتح له الملك ويقول: أُمِرْتُ أن لا أفتحَ لأحدٍ قبلك.

ووردت أحاديث صحيحة تنص على أنّ سيدي كهول أهل الجنة: أبي بكر وعمر، وأنّ سيدي شباب أهل الجنة: الحسن والحسين، وسيدات نساء أهل الجنة: خديجة وفاطمة ومريم وآسية. كما نصّﷺ على العشرة المبشرين بالجنة وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف

وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة عامر بن الجراح.

وهناك أعداد أخرى نصّ النبيﷺ على أنّهم في الجنة.

وهناك تحاور بين أهل الجنة وأهل النار قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾ سورة الأعراف.

النار:

إذا كان الله ﷻ يثيب المؤمنين بالجنة، فإنه يعذِّب الكفارَ والفجار بالنار؛ جزاء ما اقترفوا من عقيدة فاسدة وعمل قبيح. كما يُعذّب فيها المؤمنون الذين أسرفوا على أنفسهم بمعصية الله، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ سورة التحريم

وقالﷺ:

«نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» . قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً. قَالَ «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا ، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»[1].

والنار واسعة واسعة لا تضيق بمن يدخلون فيها مهما كثروا، قال تعالى:

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ سورة ق.

والنار –أعاذنا الله منها– هي دار الكافرين، والمستكبرين عن عبادة الله ...

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (باب: صفة النار وأنّها مخلوقة) حديث ٣٢٦٥، ص٥٤٤.

وهؤلاء يُعذَّبون بالسلاسل والأغلال ومقامع الحديد، وتُقَطَّعُ لهم ثيابٌ من نار، ويُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم. وأهون الناس عذاباً مَنْ له نعلان من نار في أخمص قدميه، يغلي منهما دِماغه، ما يظن أنَّ أحداً أشدَّ منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً. وهذه النار –وإنْ كانت أشدَّ من نار الدنيا– فقد خلق الله الإنسان فيها على طبيعة تختلف عن طبيعته في الدنيا: فتسلط النار على جلده فتنضجه ليذوقَ العذاب، ولا يموت فيها ولا يحيا.

والنار –أعاذنا الله منها– دركاتٌ كثيرة بعضها دون بعض، وأشدها عذاباً أسفلها: وهي التي يُعذَّبُ فيها المنافقون. ونارنا في الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم.

والنار حق، ولا يخلد المؤمن فيها. أما المشرك، فيخلد فيها؛ لأنه أنكر ألوهية الله وربوبيته.

من ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

١- المؤمن باليوم الآخر يحرص على طاعة الله، طمعاً في أن ينال ما أعدَّ الله له من الثواب الجزيل، كما أنه يبتعد عن معصيته سبحانه؛ خوفاً من عقابه تعالى.

٢- إذا كان الإنسان المؤمن يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها، فإن الإيمان باليوم الآخر يبعث في نفسه اليقين أنه سينال أكثر من ذلك في العالم الآخر، متذكراً ما قاله الله ﷻ في الحديث القدسي:

«أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر

على قلب بشر»[1].

٣- المؤمن باليوم الآخر يجعل رقابته على نفسه مستديمة، فتكون تصرفاته مع الناس الآخرين طيبة، فلا يتكالب على الدنيا، ولا يلحق الضرر بالناس الآخرين.

٤- يبعث الإيمان باليوم الآخر السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين به: فلا ينالهم الضجر والاكتئاب إذا أصابتهم المصائب.

٥- يزداد المؤمن إيمانا حين يعرف كيف يكون عدل الله في ذلك اليوم، ويقرأ قوله تعالى:

﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨** ﴾ سورة الزلزلة.

إنّ الوقوف بين يدي الله يوم القيامة –وبخاصة حين توزن أعمال العباد– تنخلع له القلوب؛ إذ لا يدري الإنسان ما يكون مصيره: إلى الجنة أم إلى النار؟..إنّ هذا الموقف وغيره يجعل الإنسان المسلم يكثر من طاعة الله؛ ليتخلص من أهوال ذلك اليوم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (باب: ما جاء في صفة الجنة) وفي أبواب أخرى، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها رقم الحديث ٢٨٢٤، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، (باب: ٣٣ ومن سورة السجدة) رقم الحديث ٣١٩٧.

الإيمان بالقضاء والقدر

أسس الإسلام عقيدة القضاء والقدر على الإيمان بالله وبصفاته الكاملة.

ومن صفاته: علمُه الأزلي الذي أحصى كل شيء. قال تعالى:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ سورة يونس.

وإذا تتبعنا كلمة (القَدَر) في القرآن الكريم، نرى أن المقصود به: النظام المحكم الدقيق الذي جعله الله لهذا الوجود، والسنن الكونية التي ربط الله بها الأسباب بمسبباتها، أو أنه ما قدّره الله تعالى منذ الأزل ...

أما القضاء، فهو: إيجاد الكائنات وتسييرها حسب ما قدَّره الله لها في الأزل.

ويمثل الفرقَ بين القضاء والقدر الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، فيذكر أن العمارات التي تشيد يقوم بتصميمها مهندس، وينفذها مقاول. فالمهندس هو الذي يقوم بتصميم العمارة، مبيناً ما تحتاجه من مواد إنشائية وأبواب ونوافذ، والمقاول ينفذ ما صممه المهندس. وما مَثَلُ المهندس –ولله المثل الأعلى– إلا كمثل القَدَر، وما مَثَل المقاول إلا كمثل القضاء!

وإذا كان المهندس من حقه أن يبدِّل ويغيِّرَ في التصميم، فإن الله تعالى من رحمته بعباده أن جعل قسماً من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى الله، سبباً في رفع ما كان مقدّراً. ومن هنا يتبين لنا أهمية الدعاء وفائدته؛ إذ لو كانت الأمور لا تتبدل ولا تتغير، لما كان للدعاء من فائدة، ولما كان لبعثة الأنبياء من فائدة أيضاً.

الإنسان مجبر:

هناك أمور لا خيار للإنسان له بها: مثل طول الإنسان وقصره، وجماله أو قبحه، والزمان الذي ولد فيه، فإن هذا وأمثاله لا يَدَ للإنسان فيه، والله تعالى وحده هو الذي يوجه الحياة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾ سورة آل عمران.

ولا ريب أن الله لا يحاسب الإنسان على شيء من ذلك؛ لأن ذلك لم يجر بإرادة الإنسان: فهو مجبر في هذه الناحية، والثواب أو العقاب إنما يناط بالحرية، أما المكره، فلا يعاقب على فعله، والله تعالى يقول:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ سورة البقرة/ ٢٨٦.

وعلى الإنسان في هذه الحالة أن يؤمن بالقدر، لأنَّ الله تعالى قد قدَّره منذ الأزل.

حرية الإرادة:

خلق الله الإنسان مزوداً بملكات وقوى يمكن أن يوجهها (الإنسان) نحو الخير، كما يمكن أن يوجهها نحو الشر. ويستطيع الإنسان بما وهبه الله من عقل أن يميز بين الخير والشر، ويستطيع بإرادته أن يُقدم على أعمال الخير أو أعمال الشر ... إنه يستطيع أن يضرب بقوته التي أعطاها الله له الأبرياء ويسيء إليهم، كما يقدر على مساعدتهم والإحسان إليهم باختياره الكامل ... إن عمله

الأول إساءة يستحق عليها العقاب، وعمله الثاني إحسان يستحق عليه الثواب. وهذا مثال يوضح ما نريد تقريره:

إذا كان في بيتك آلة تسجيل، ومعها أشرطة قد سُجِّل فيها أغانٍ مائعة مبتذلة، وأشرطةٌ أُخرى سُجِّلَ فيها تربية، وتوجيه، وتثقيف، وتسلية بريئة، وقد أمرتَ أولادَك أن لا يسمعوا الأغاني المائعة، وتوعدتَ من سمع شيئاً من هذه الأغاني بإنزال القصاص به، ودخلتَ البيت فجأةً؛ فوجدتَ أولادَك وهم آذان صاغية لهذه الأغاني المبتذلة، فإنك لا تعاقب أولادَك على خلْق الطاقة التي بذلوها في تشغيل آلة التسجيل، وإنما تعاقبهم؛ لأنهم توجهوا بإرادتهم إلى سماع هذه الأغاني التي نُهُوا عن سماعها. فلم تكن العقوبة بسبب الفعل، بل بسبب توجيه الفعل. وقد قرر هذه الحقيقة الإمام أبو حنيفة –رحمه الله– فقال:

(إن الاستطاعة التي تُعْمَلُ بها المعصية، هي بعينها تصلح لأنْ يُعمَلَ بها الطاعة. وهو معاقب في صرف الاستطاعة التي أحدثها الله تعالى فيه، وأمره أن يستعملها في الطاعة دون المعصية)[1].

هذه الحقائق أشار إليها القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ سورة الشمس.

وقوله:

(١) أركان الإيمان تأليف وهبي سليمان الألباني، ص٣٠٨، الطبعة الأولى، ١٣٩٧، مؤسسة الرسالة.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ سورة الإنسان.

فلم يجبر الإنسان على عمل من الأعمال، بل هو مختار.

مع الضالين والعصاة:

يحاول الضالون والعصاة أن يبرروا ضلالهم وعصيانهم: فهم يزعمون أنَّ الله هو الذي أضلهم وأرغمهم على ترك العبادات والطاعات، في الوقت الذي هدى الناسَ الآخرين. وكثيراً ما يستشهدون على زعمهم بقول الله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ سورة القصص/ ٥٦.

ونقول لهؤلاء: عليكم أن تعلموا أن الهداية تقسم على قسمين:

١- هداية إرشاد.

٢- هداية إعانة.

(أما هداية الإرشاد، فهي كمنْ يدلُّك على الطريق الذي يُوصلُكَ إلى البيت الذي تريد، ثم يتركك. فهو قد هداك إلى الطريق وأرشدَك.

ورسل الله يقومون بهذه الهداية للبشرية، فهم يرشدون الناس إلى الطريق الذي يوصلهم إلى الجنة، قال تعالى مخاطباً رسول الله ﷺ:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾).

(أما هداية الإعانة، فمثلها كمثل شخص كريم رحيم ودود، سألتَه عن الطريق إلى البيت الذي تريد، فأرشدَك إليه، فطلبتَ منه العون، فَحَمَلَكَ على سيارته، وأخذ بيدك إلى هدفك، فهذه هداية إعانة. وهذه لا تكون إلا لشخص قَبِلَ هداية الإرشاد وطلب العون).

(وإذا كان الرسل يقومون بهداية الإرشاد، فهم لا يملكون هدايةَ التوفيق والمعونة؛ لأن الله –سبحانه– لا يعطيها إلا لمن يعلم أنه يستحقها. قال تعالى مخاطباً نبينا محمداً ﷺ:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ سورة القصص.

فهو العادل الذي يهدي مَنْ قَبِلَ هداية الإرشاد بهداية التوفيق، قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ سورة محمد .

ولا يُضِلُّ –سبحانه– إلاَّ مَنْ يستحق الإضلال ممن رفض هداية الإرشاد، وزاغ عن الطريق، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾)[1]. سورة الصف

شبهة ساقطة:

(يقول بعض الجهلة: إن ما كتبه الله في اللوح، هو الذي جعل تارك الصلاة تاركاً للصلاة، وجعل المصلي مصلياً! وهذا وَهْم؛ لأن المصلي يقوم إلى الصلاة باختياره دون إجبار، وتارك الصلاة يتركها دون إكراه أو إجبار. وهذا ما يعرفه كل إنسان؛ لأن الله أراد أن يخلق الإنسان وله حرية واختيار.

أما إذا سألت السائل: كيف لا يكون ما قد كتب في اللوح مجبِراً للإنسان على العمل، مع أنه قد كُتِبَ منذ الأزل؟ فنقول: إن الأمر سهل، يوضحه هذا المثال:

---

(١) الإيمان تأليف عبد المجيد الزنداني ورفاقه، ص٢٠٣-٢٠٥، الطبعة الخامسة ١٤٠٧-١٠٨٧، دار القلم/ دمشق.

ألا ترى أن الأستاذ الذكيَّ الخبير بأحوال طلابه، الذي يضع أسئلة الامتحان، لو أنه كتب في ورقة أسماء من هو متأكد من أنهم سيرسبون في الامتحان، وبيَّنَ أسماء من هو متأكد من نجاحهم. ثم جاء الامتحان، وظهرت النتيجة كما كتب الناجحين والراسبين، ثم جاء الذين رسبوا محتجين بقولهم: إن ما كتبه الأستاذ علينا في الورقة بأننا سنرسب هو السبب في رسوبنا! فهل سيُقبَلُ عذرُهم؟ أم أنه سيقال لهم: إنَّ ما كتبه الأستاذ في الورقة أمر متعلق بعلمه وخبرته السابقة بأحوالكم، ورسوبكم متعلق بإهمالكم؛ فلا تعتذروا لإهمالكم بعلم الأستاذ وخبرته –ولله المثل الأعلى– فهو -سبحانه- خالق الخلق، وهو العليم بأحوالهم، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الملك. ولقد خَلَقَنا الله –سبحانه– لقضاء مدة الامتحان على هذه الدنيا، وهو –جلّ شأنه– يعلم نتيجة الامتحان؛ فكتبَ الشقاء على الأشقياء، وكتبَ السعادة للسعداء حسْبَ عِلْمِهِ المحيط بما كان وما سيكون.

وربما أخطأ الأستاذ في تقديره لنتائج طلابه، لكنَّ الله لا يخطئ في تقديره لأعمال خلقه، والكتابةُ في اللوح المحفوظ أمر متعلق بعلم الله السابق. فَتَرْكُ الصلاة –مثلاً– أمر متعلق بتمرد وإهمال ومعصية تارك الصلاة. وقد أراد الجاهلون أن يعتذروا للمعصية والضلال بعلم الله وكماله!! إن علم الله سابق لا سائق)[1].

(١) الإيمان تأليف عبد المجيد الزنداني ورفاقه، ص٢٠٥-٢٠٧، الطبعة الخامسة ١٤٠٧-١٠٨٧، دار القلم/ دمشق.

وزيادة في إيضاح هذه المسألة أقول:

إن الإنسان الذي يؤثر الغواية على الهداية، والضلال على الرشاد، يقرُّه الله على ما أراد، والله تعالى يقول:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ سورة الصف.

ويقول:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ سورة النساء.

وهكذا يبدو واضحاً أن الإنسان حين يريد الضلال، يُقرُّه الله على ما أراد. وتأتي الهداية والإضلال مسببات لأسباب، ونتائج لمقدمات. وحين يُسند الله الهداية والإضلال إلى نفسه الكريمة، فقد كان ذلك؛ لأن الله هو الذي وضع نظام الأسباب والمسببات. وهذا لا يعني أن الله أجبر أحداً على الهداية أو الضلال!

هل يُردُّ القضاء:

القضاء الذي تمت أسباب نفاذه لا يردُّه إلا الدعاء. وهذا من رحمة الله بعباده أن يكون الدعاء درع وقاية ونجاة من وقوع القضاء.

ويظل الدعاء والقضاء يتصارعان إلى يوم القيامة. وهذا يعني أنّ القضاء قد تهيأت أسبابه ليأخذ وضعه في الوجود: فهو كالسهم الذي خرج من الكنانة وكاد يبلغ غايته، لكنّ الدعاء حين التقاه وقفه. ويظل الدعاء محاصرا له لا يدعه يصيب هدفه. وهذا من رحمة الله بعباده. ولهذا كان من دعاء المؤمنين المأثور:

[اللهم إنّا لا نسألك رد القضاء، بل نسألك اللطف فيه] يقول الإمام الغزالي:

(فإن قلت: فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟

فاعلم أنّ من القضاء ردَّ البلاء بالدعاء، فالدعاء سببٌ لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أنّ الترسَ سببٌ لرد السهم، والماء سببٌ لخروج النبات من الأرض، فكما أنّ الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان. وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يُحْمَل السلاحُ وقد قال تعالى ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ وأن لا تُسقى الأرض بعد بث البذر، فيقال: إنْ سَبَقَ القضاءُ بالنبات نبتَ البذرُ، وإنْ لم يسبقْ لم ينبتْ، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب وتفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسبب. والذي قدر الشر قدر لدفعه سبباً فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته)[1].

هل يُدفع القدر:

ذكرنا فيما سبق أنّ القدر هي السنن الكونية التي ربط الله بها الأسباب بمسبباتها: فالبذرة إذا أُلقيت في أرض لينة، وسقيت بالماء الطبيعي،ولاقت جوا ملائما تنبت، لكنها إن وُضعت في صخرة فلا تنبت؛ لأنّ الصخرة ليس فيها قوة

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ١/ ٧٣١، خرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور محمد وهبي سليمان وأسامة عمورة، الطبعة الأولى ١٤٢٧-٢٠٠٦، دار الفكر، دمشق.

للإنبات، والنار إذا اتصلت بثوب الإنسان أحرقته، ثم تحرق جسمه، وتذره كأنه قطعة من الفحم، لكنّ هذه النار إذا جعلنا فيها أسبابا تبطل قوة الاشتعال فيها: كأن نلقي عليها الماء، أو نمنع الهواء من الوصول إليها..فعند ذاك لا تشتعل؛ لأن العوامل التي تساعد على الاشتعال قد فقدت...وهكذا ندفع القدر بالقدر: فندفع قدر الاشتعال بقدر الأسباب التي تمنع النار من الاشتعال.

إنّ الجوع قدر، والكسل قدر، فيدفع قدر الجوع بقدر الأكل، ويدفع قدر الكسل بقدر الجد والاجتهاد.. وحين أراد سيدنا عمر بن الخطابﷺ أن يفر من مرض الطاعون اعترضه من اعترضه بقوله:

أتفر من قدر الله؟

فقال له سيدنا عمر:

نعم، أفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أي أفرُّ من قدر الوباء والمرض إلى قدر الصحة..ثم ضرب له سيدنا عمر مثلا على ذلك بالأرض الجدباء، والأرض الخصبة التي ترعى فيها الإبل، فإذا انتقل من الجدباء إلى الخصبة يصير قد انتقل من قدر الله إلى قدر الله!

التوكل وعقيدة القضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر لا يجعل الإنسان يميل إلى الكسل والخمول، ولا يُعطّل مداركه ويقبر إبداعه كما توهّم قسم من المستشرقين؛ ذلك لأنّ الله تعالى خلق في هذا الكون سننا ونواميس، وهذه السنن والنواميس لا تتبدل ولا تتغير..وعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تسير على وفق هذا النظام المحكم الذي ارتبطت فيه الأسباب بالمسببات..!

والعجيب كل العجب أن يستدل قسم من الناس على أنّ عقيدة القضاء والقدر تدعو إلى التواكل والكسل بحديث رسول اللهﷺ الذي يقول فيه:

«لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»[1].

ولو أنعم هؤلاء نظرهم في هذا الحديث لما استنبطوا منه هذا الاستنباط السقيم، بل لاتضح لهم عكس ما استنبطوه تماما؛ ذلك لأنّ الرسول الكريم لم يقل: لرزقكم كما يرزق الطير في أوكارها فهو الذي يرسل إليها طعامها وشرابها، بل قال: **«تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»**. وهذا يعني أنها تذهب وتفتش هنا وهناك عن رزقها، فهي لم تجلس في أوكارها تنتظر رزقها فقط، بل تخرج من عشها وتفتش عن الرزق...

على أنّ الرسول الكريمﷺ لو كان قصده من الحديث الدعوةَ إلى الكسل والخمول، لما أتعب نفسه في الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل الله، ولما تحمّل من عنت المشركين ما تحمّل..أوَما بلغكم من سيرتهﷺ ما لاقاه من قومه وهو يدعو إلى الله بلا كلال ولا تعب ولا ملل؟

أوَما بلغكم ما لاقاه صحابة رسول الله –رضوان الله عليهم– وهم ينشرون الهداية في العالمين؟

فإذا كان قسم من المستشرقين من الذين يطيب لهم الافتراء، وتشويه حقيقة الإسلام، قد زعم أنّ المسلمين متواكلون، وما جاءهم هذا التواكل إلا

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم. ينظر: فيض القدير للمناوي ٥/ ٣١١.

من قِبَلِ دينهم، فإنّ زعمهم هذا يدحضه واقع المسلمين حين كانوا مسلمين بحق. فقد استطاع المسلمون في صدر الإسلام الأوّل أن يَدكُّوا معاقل الباطل في الروم، ويُحطّموا حصون الأكاسرة في فارس، ويُخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ولم يفعل المسلمون ذلك إلا بعد أن أخذوا بالأسباب التي دعاهم إلى الأخذ بها القرآن الكريم وسنة الرسولﷺ!

لماذا الإيمان بالقدر:

أسرار الله في هذا الكون كثيرة كثيرة، ولا يستطيع الإنسان أن يحيط بها علماً. ومن الجهالة أن يعترض الإنسان على حكم من أحكام الله. وما مثل الإنسان المعترض على بعض أحكام الله إلا كمثل الإنسان الجاهل رأى طبيباً يفتح بطن مريض، ويجري له عملية استئصال المرارة، أو جزء من الأمعاء، فهو يعترض على الطبيب أشد الاعتراض، لكنه إذا عرف حكمة الطبيب في تصرفاته، وخبرته في عمله، فإنه يتراجع عن اعتراضه، ويعترف بجهله. وأين علم الطبيب من علم الله تعالى؟!!!

وأخيرا فإنّ هذا الدين قائم على التسليم لله رب العالمين، فإنّ المسلم يوقن أنّ كل ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة مكتوب في أمّ الكتاب؛ فيكون هادئ النفس، مرتاح البال، مستريح الضمير، شاكرا لله في السراء، وصابرا على الضراء، معتقدا أنّ كل ما يصيبه فيه خير له، لم تبطره النعمة، ولا يجزع من المصيبة، واضعا أمام عينيه حديث رسول اللهﷺ:

«عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ له خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَالكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1].

ويقرأ السلف الصالح كتاب الله تعالى، فيقف سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان عند قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ سورة التغابن/ ١١. فيفسرانها بقولهما: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم[2].

وفسّر الآية ابن عباس بقوله: (من يؤمن بالله يهد قلبه لليقين، فيعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)[3].

ونقرأ في أحاديث النبيﷺ فنجده عليه الصلاة والسلام يدعو صحابته –وهي دعوة لكل مسلم في هذا الوجود– إلى الصبر والرضا عند المصيبة؛ لأنّ الرضا بعدها من أركان الإيمان، وقد قال النبيﷺ:

«...احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد (باب: المؤمن أمره كله خير) حديث ٧٥٠٠، ص١٢٩٥.

(٢) تفسير ابن كثير تهذيب وترتيب، ٦/ ٣٢٨١، هذبه الدكتور: صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الأولى ١٤٢٩–٢٠٠٨، دار الفاروق، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٢٨٠.

عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1].

ومن دعاء النبيﷺ قوله:

«اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقا إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»[2].

وحين آمن السلف الصالح بعقيدة القضاء والقدر إيمانا عميقا صارت السعادة تغمرهم من كل جانب، حتى قال عمر بن الخطابرضي الله عنه:

(ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء)[3].

وقد كتب يوماًرضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري كتابا جاء فيه:

(أَمّا بعد، فإِن الخير كلَّه في الرضا، فإِن استطعت أَن ترضى وإِلاَّ فاصبر)[4].

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر (باب: الإيمان بالقدر والإذعان له) حديث ٢٦٦٤، ص١١٦١؛ وابن ماجه في كتاب الزهد (باب: التوكّل واليقين) حديث ٤١٦٨، ص٦٠٨.

(٢) رواه الحاكم -واللفظ له- في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل، حديث ١٩٠٠، المستدرك ١/ ٦٩٧؛ والإمام أحمد في مسنده برقم ٢١٦٦٦، ٣٥/ ٥٢٠؛ والنسائي في كتاب السهو (باب: الدعاء بعد الذكر) حديث ١٣٠٦، سنن النسائي ص١٨٣؛ وابن حبان في صحيحه كتاب الصلاة (باب: صفة الصلاة) حديث ١٩٧١، ٥/ ٣٠٤، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤١٤-١٩٩٣.

(٣) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ٢/ ١٦٤، ضبطه وصححه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الطبعة الثانية ٢٠٠٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ٣/ ٨٥، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، بيروت.

وقال الحسن البصري:

(لا تكرهوا النقمات الواقعة، والبلايا الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولربّ أمر تؤثره فيه عطبك)[1].

ولربّما أخذ الحسن البصري هذا من قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ سورة البقرة.

وقال عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–:

(أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر)[2].

لقد اعتقد الصحابة والسلف هذه العقيدة، بعد أن غرس القرآن الكريم في قلوبهم ذلك، وبينها لهم النبي الكريمﷺ في أحاديثه الكثيرة، ففي وصيته لابن عباس رضي الله عنهما قوله:

«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[3].

وفي رواية غير الترمذي:

«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء

---

(١) القضاء والقدر، تأليف: عبد الكريم الخطيب، ص٢٢٧، دار المعرفة، بيروت.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٦٤.

(٣) رواه الترمذي بإسناد صحيح في كتاب صفة يوم القيامة (باب: ٥٩) حديث ٢٥١٦، ص٥٧٢.

يعرفك في الشدة، واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[1].

وعقيدة القضاء والقدر –فوق ذلك– تغرس العزة والكرامة في نفس المؤمن: فهو لا يذل لغير الله، ولا يطيع غير مولاه جل جلاله.

أمّا الذين لا يؤمنون بالقضاء والقدر، فتكون حياتهم مليئة بليل مظلم، وسواد حالك، فهم يسخطون، وتضيق صدورهم، وتمتلئ أنفسهم كآبة، وتسودُّ الدنيا في عيونهم، ويصير العالم كله أمامهم ظلاما دامسا إذا أصابهم ما يكرهون.

من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر:

١- الإيمان بالقَدَر يجعل الإنسان في راحة تامة، ويبعث في نفسه الاطمئنان؛ لأنه يعلم أنّ المكروه إذا أُصيب به كان بقضاء الله؛ فيرضى بقضائه تعالى: فهو لا يأسى على ما فاته، ولا يجزع إذا أُصيب بمصيبة. قال تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ سورة الحديد.

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه كتاب معرفة الصحابة، حديث ٦٣٠٤، ٣/ ٦٢٤؛ والبيهقي في شعب الإيمان حديث ١٠٧٤، ٢/ ٢٧-٢٨، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الطبعة الثانية ١٤٢٩-٢٠٠٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- الإيمان بالقدر يجعل المسلم معتمداً على الله في فعل الأسباب؛ لأنه يعلم أن السبب والمسبب كان بقضاء الله وقدره.

٣- يبعث الإيمان بالقدر على تهذيب النفس، وطرد الإعجاب منها عند حصول المراد؛ ذلك لأن النعم التي يصيبها الإنسان إنما كان ذلك بما قدَّره الله من أسباب الخير؛ فيشكر لله تعالى، ويَدَعُ العُجْبَ بالنفس، ولا يقول كما قال قارون:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ سورة القصص/ ٧٨.

٤- الإيمان بالقضاء والقدر يبعث الطمأنينة -مرة أخرى- في نفس المؤمن؛ لأنه يعلم أنَّ الله عليم حكيم، لا يضع شيئاً إلا لحكمة. وإذا خفيت الحكمة عن عقول البشر؛ فذلك لقصور العلم البشري.

٥-يبعث الإيمان بالقضاء والقدر المسلم على الشجاعة والاقدام من غير خوف أو وجل؛ لأنّه يؤمن أنّ الحياة والموت بيد الله وحده، فلا يستطيع أحد أن يُقرّب من عمر أحد ساعة من ليل أو نهار، موقنا أنّ ما قدره الله في علمه الأزلي يتحقق كما قدّره، وكيف لا يوقن بهذا وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ سورة التوبة/ ٥١

كلمات حاسمة

هذه كلمات في قضايا مهمة، آثرتُ ذكرها هنا لحاجة كثير من الناس إليها، وذلك لما نرَاه ونسمعه في كثير من الأيام من نقاش طويل، وجدال عريض هنا وهناك حولها، وقد يطول ذلك النقاش أو يقصر ... وربما يتعصب كل فريق لرأيه؛ فتقع القطيعة، وتحل البغضاء بين الأخوة المتحابين. ومن هذه القضايا:

الكرامات:

الكرامة أمر قد يكون خارقاً للعادة، لكنه غير مقرون بالتحدي، ولا بدعوى النبوة، يظهره الله على أيدي قسم من عباده الصالحين تقوية لإيمانهم، أو لإقامة الحجة على خصومهم. علم بها العبد أم لم يعلم، وهي من الأمور الجائزة عقلاً والواقعة فعلاً، لكنَّ وقوعها لا يدل على أن أصحابها هم أفضل من غيرهم. كما أن الأولياء الذين لم تظهر على أيديهم كرامة لا يدل على نقصهم. وقد يكون ما يعطيه الله لعبده المؤمن من الاستقامة على كتاب الله وسنة رسوله كرامة من أعظم الكرامات. وقد ذكر القرآن الكريم كرامات كثيرة، منها حمل السيدة مريم بسيدنا عيسى عليه السلام من غير أن يمسها بشر، وقصة أصحاب الكهف والرقيم الذين أنامهم الله ثلاثمائة من السنين وازدادوا تسعاً.

ومن الكرامات التي ذكرها رسول الله ﷺ قصة (العابد جُرَيج) الذي اتُّهم بالزنا؛ فتكلم المولود الرضيع ببراءته، وقصة الغلام المؤمن مع الملك الكافر الذي حجب الناس عن الإيمان بالله. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ﴾ سورة البروج.

وهناك كرامات كثيرة لصحابة رسول الله ﷺ منهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأُسيد بن حضير، وعبَّاد بن بشر، وسعد بن أبي وقاص...

والكرامة لا يثبت بها حكم من الأحكام الشرعية، ولا ينتفي بها حكم شرعي أيضاً. ويُحتَرَمُ الإنسان صاحب الكرامة بقدر تمسكه بعقيدة الإسلام وشريعته، فإذا قصَّرَ في ذلك؛ فينبغي أن يفقد المحبة من قلوب الناس. قال يونس بن عبد الأعلى الصفدي:

قلتُ للشافعي: كان الليث بن سعد يقول:

(إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، فلا تغتروا به، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة).

فقال الشافعي:(بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة)[1].

إذن أفضل الكرامة: الإستقامة على منهاج الإسلام في كل صغيرة وكبيرة، يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر:

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص٤١١، الطبعة الثانية، دار القلم / دمشق بيروت.

(ليست الكرامة دليلا على تفضيل هذا المعطى على غيره، فقد يعطي الله الكرامة ضعيف الإيمان لتقوية إيمانه، ومحتاجا لسد حاجته، ويكون الذي لم يُعط مثل ذلك أكمل إيمانا وأعظم ولاية، وهو لذلك مستغن عن مثل ما أُعطي غيره؛ ولذلك كانت الأمور الخارقة في التابعين أكثر منها في الصحابة، وعلى هذا فلا ينبغي أن يشغل المرء نفسه بالتطلع إلى الكرامة، ولا ينبغي له أن يحزن إذا لم يُعطها، وقد صدق أبو علي الجوزجاني وبرّ حين قال: [كن طالبا للاستقامة، لا طالبا للكرامة، فإنّ نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربّك يطلب منك الاستقامة] قال بعض من فهم قوله: وهذا أصل عظيم كبير في الباب، وسرّ غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب)[1].

الأولياء:

الولي: هو مَنْ عرف الله معرفة صحيحة، وواظب على طاعته، وأعرض عن الانهماك في الشهوات المباحة، وحافظ على السنن والآداب الشرعية.

والولي يرفع الله عنه الخوف والحزن، ويدخل عليه السرور.

وأولياء الله ليسوا في درجة واحدة، بل هم متفاوتون: فكلما كان الولي أكثرَ إيماناً وتقوى، صارت ولايته لله أقرب. وصحابة رسول الله هم أفضل الأولياء. وأفضل الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن

(١) الرسل والرسالات، تأليف الدكتور: عمر سليمان الأشقر، ص١٥٩، الطبعة الرابعة عشرة ١٤٢٧-٢٠٠٧، دار النفائس، الأردن، نقلا عن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١/ ٣٢٠، جمع: ابن قاسم، الطبعة الأولى، الرياض.

أبي طالب، ثم سائر العشرة المبشرين بالجنة، والذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة.

فليس هناك تلازم بين الولاية وخوارق العادات: فقد يظل المؤمن المتقي طول حياته لا يجري الله على يديه خرقاً للعادة.

والولي لا يعلن عن نفسه، بل ينقاد انقياداً تاماً لأوامر الله ورسوله، وينظر إلى نفسه - دائماً- على أنه مقصر، فيحاسب نفسه على كل صغيرة، ويبتعد عن مواطن الشبهات، ويزهد فيما في أيدي الناس.

ولقد أخطأ كثير من الناس حين رفعوا مقام الأولياء إلى مقام يقرب من مقام الألوهية، وذلك باعتقادهم أن الأولياء يستطيعون كشف الضر عن الناس، ويلحقون أذى بأناس آخرين، ويستطيعون أن يمنحوا الأولاد لمن كان عقيماً؛ لذلك يقوم هؤلاء على قبورهم يعظمونهم. وقد نعى القرآن الكريم على مَنْ يسلك هذا المسلك الضال، فقال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ سورة الفرقان/ ١٧ - ١٨.

ولا ريب أن الأولياء هم أول من يتبرأ من هؤلاء، ويرفض هذه المكانة التي يرفعهم إليها الجاهلون.

فما على المسلم إلاَّ أن يحذر -أشدَّ الحذر- من الدجالين والمشعوذين الذين يقومون بخداع الناس؛ ليلعبوا بعقولهم، ويسلبوا منهم أموالهم.

العلم الباطن:

لقد بلَّغَ الرسول ﷺ ما أنزله الله إليه، ولم يكتم منه شيئاً، سواء كان في العقيدة أو الشريعة، ولم يخص واحداً بحكم من أحكام الشريعة من دون سائر الصحابة، ولم ينزل وحيٌ على أحد مع محمد ﷺ، ولا على أحد من بعده. فليس في الإسلام علم باطن يخالف ظاهرَ الشريعة التي يدين بها المسلمون، ومَنْ ادعى ذلك، فقد افترى على الله الكذب.

وأما الاحتجاج بما كان بين (موسى) و (الخضر) عليهما السلام -فليس بصحيح؛ ذلك لأنَّ كلاً منهما كانت له شريعة خاصة به يقوم بأدائها -وإن كانا في وقت واحد-: فكان موسى يتصرف بأمر ربه، وكان الخضر يتصرف بأمر ربه أيضاً؛ إذ كان الخضر نبياً يعمل بوحي من الله. يدل على ذلك قول الخضر عليه السلام -كما حكى القرآن الكريم-:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ سورة الكهف/ ٨٢.

القبور وزيارتها:

مَنَعَ النبيُّ محمد ﷺ من زيارة القبور بعد البعثة أوَّلَ الأمر؛ سداً لذريعة الشرك، ثم أذِنَ بزيارتها لَمَّا تمكَّن التوحيد في قلوب المسلمين. وهذه ملاحظات عن القبور وزيارتها:

١- زيارة القبور مشروعة، بل هي سنة للرجال بهدف الاتعاظ والاعتبار، وتذكر الدار الآخرة، وترقيق القلوب، والدعاء للأموات من المسلمين؛ لحديث رسول الله ﷺ:

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنها تُزهِّدُ في الدنيا، وتذكِّر الآخرة»[1].

٢- يستحب أن ندعو للأموات بالمغفرة، ويحرم أن نَدْعوَهم، أو نطلبَ منهم شيئاً، أو نستعين بهم، أو نسأل الله بحقهم. وقد كان رسول الله ﷺ يقول عند زيارة القبور:

«السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله (بكم) للاحقون. أسأل الله لنا ولكم العافية»[2].

٣- نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على القبور والصلاة إليها فقال:

«لا تُصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»[3].

٤- يحرم تجصيص القبور والبناء عليها. ففي الحديث الشريف:

«نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يبنى عليه»[4].

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز، (باب: ما جاء في زيارة القبور)حديث ١٥٧١ ص٢٢٤.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنائز، (باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها)، حديث ٢٢٥٧ ص٣٩٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنائز، (باب: النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه)، حديث ٢٢٥١ص٣٩٠

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنائز، (باب: النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه)، حديث ٢٢٤٥ ص٣٩٠.

الإيمان بالوعد والوعيد:

لا نجزم لأي إنسان كان بالجنة ولا بالنار إلا لمن جزم له رسـول الله ﷺ بذلك، ولكن نرجو للمحسن الجنة، ونخاف على المسيء من النار. فنشهد بالجنة للعشرة المبشرة؛ لأن النبي ﷺ شهد لهم بها وهم:

١- أبو بكر الصديق	٢- عمر بن الخطاب
٣- عثمان بن عفان	٤- علي بن أبي طالب
٥- طلحة بن عبيد الله	٦- الزبير بن العوام
٧- عبد الرحمن بن عوف	٨- سعد بن أبى وقاص
٩- سعيد بن زيد	١٠- أبو عبيدة عامر بن الجراح

كما نشهد بالجنة لغير هؤلاء ممن شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة مثل:

بلال بن رباح وجعفر بن أبي طالب وعمرو بن ثابت

وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ

وجميع زوجات النبي ﷺ وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

الصحابة الكرام:

خصَّ الله رسوله محمداً ﷺ بصحابة كرام، نشروا دعوتـه، وجاهـدوا في الله حق جهاده، وقد مَدَحَهم الله في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ سورة الأنفال.

وقوله:

﴿ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي

قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ سورة الفتح.

وقوله:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾سورة الفتح/ ٢٩.

وقوله:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ سورة التوبة.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

(أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة ﷺ... فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبُّون من (رضي الله عنهم)؟[1].

أما رسول الله ﷺ، فقد مَدَحَ أصحابه في أحاديث كثيرة، منها قوله:

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٣٤، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة الثانية ١٤٢٣-٢٠٠٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

«خيرُ أُمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ...»[1].

وقوله:

«الأنصارُ لا يُحبُّهم إلا مؤمن، ولا يُبْغضهم إلا منافق، فمن أحبَّهم أحبَّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[2].

لذلك قال ابن عبد البر وهو يتحدث في عدالة الصحابة:

(ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله ﷻ عليهم، وثناء رسوله ﷺ ولا أعدل ممن ارتضاه الله لصحبة نبيه ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك، ولا تعديل أكمل منه ...)[3].

وقال أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

(لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى أحدا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم رُكَبَ المعزى من طول

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، (باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ)، حديث ٣٦٤٩ ص٦١٢. ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: فضائل الصحابة ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يلونهم)، حديث ٦٤٧٣ ص١١١١.

(٢) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، (باب: حب الأنصار من الإيمان)، حديث٣٧٣٨، ومسلم في كتاب الإيمان وعلاماته (باب: الدليل على أن حب الأنصار وعليّ رضي الله عنهم من الإيمان)١/ ٨٥.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبن عبد البر ١/ ٢، بتحقيق علي محمد البجاوي / مطبعة نهضة مصر / القاهرة.

سجودهم، إذا ذُكر الله هملت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف؛ خوفا من العقاب ورجاءا للثواب)[1].

وقال أبو جعفر الطحاوي في عقيدته:

(ونحب أصحاب رسول اللهﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم. ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم. ولا نذكرهم إلا بخير. وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان)[2].

والصحابة ليسوا في درجة واحدة في الفضل: فأفضلهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي على الترتيب، ثم بقية العشرة المبشرة بالجنة، ثم بقية الصحابة كل على منزلته ...

ويمسك المسلم عما جرى بين الصحابة، ويعتقد أنهم مجتهدون في ذلك. فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد. مقتدين في ذلك بالإمام الشافعيرضي الله عنه وقد سئل عما جرى بين الصحابة فقال:

(تلك دماء طهَّرَ اللهُ أيدِيَنا منها، فلا نلوِّث ألسنتنا بها)[3].

ومقتدين -أيضاً- بالإمام أحمد بن حنبلرضي الله عنه، وقد سئل عن أمر عائشة

---

(١) نهج البلاغة، ص١٧٨، شرح الإمام محمد عبدة، تحقيق: أحمد جاد، الطبعة الأولى ١٤٢٧-٢٠٠٦، دار الغد الجديد، القاهرة.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٦٨٩، تحقيق الدكتور: عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٣) المعتقد الإيماني شرح منظومة الشيباني لأبي البقاء الأحمدي الشافعي، ص٤١، نشره محمد رؤوف الغلامي، مطبعة شفيق، بغداد، ١٣٨١-١٩٦٢.

وعليَّ رضي الله عنهما؛ فأجاب بتلاوته لقوله تعالى:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ سورة البقرة.

وما أروع ما قرره الشيخ محمد الشيباني في منظومته في عِلم العقائد إذ يقول:

ونسكتُ عن حرب الصحابة فالذي
جَرَى بينهم كان أجْتهاداً مُجَـرَّدا
وقد صحَّ في الأخبار أنَّ قتيلهم
وقاتِلَهم في جنة الخلدِ خُلِّـدا

وقال الشيخ عبد السلام اللقاني:

(البحث عمّا جرى بين الصحابة من الموافقة والمخالفة، ليس من العقائد الدينية، ولا من القواعد الكلامية، وليس مما ينتفع به في الدين، بل ربما أضرَّ باليقين)[1].

حول سب الصحابة:

ولا يجوز سب أي واحد كان من الصحابة، فقد قال النبيﷺ:

«لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بلغ مُدَّ أَحَدِهِمْ

(١) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقاني، ص٢٠٣-٢٠٤، الطبعة الثانية، ١٣٧٥-١٩٥٥، مطبعة السعادة / القاهرة.

وَلاَ نَصِيفَهُ»[1].

وفي هذا الحديث حكمان:

أحدهما: حرمة سب أي واحد كان من الصحابة، فقد جاء النهي بعبارة لا تُحمل على غير الحقيقة.

ثانيهما: تبيان عظم منزلتهم عند الله، حتى كان المُد الذي أنفقوه لا يعدله إنفاق غيرهم ولو كان مثل جبل أحد من الذهب.

وقال النبيﷺ:

«اللهَّ اللهَّ فِي أَصْحَابِي، اللهَّ اللهَّ فِي أَصْحَابِي، لاَ تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَنْ آذَى اللهَّ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ»[2].

ومعنى **«لاَ تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي»**: أي لا تجعلوهم هدفا ترمونهم بأقوالكم بما يقلل شأنهم ويزهّد فيهم، ويبغّضهم إلى الناس.

لذلك ذهب جمهور العلماء إلى حرمة من يسب أي واحد كان من الصحابة، ومن يسب فإنه يرتكب كبيرة من الكبائر، ويصير مبتدعا وفاسقا، ومن اعتقد أنّ سب الصحابة مباح أو اعتقد بكفر الصحابة، فإنّه -عند ذلك-

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبيﷺ (باب: قول النبيﷺ: لو كنت متخذا خليلا) حديث ٣٦٧٣؛ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: تحريم سب الصحابة) حديث ٢٥٤١.

(٢) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٠٤٥٦، ١٥/ ٢٥٣؛ والترمذي في (باب: من سبّ أصحاب النبيﷺ) حديث ٣٨٦٢، ص٨٦٩.

يصير كافرا بإجماع العلماء، وقد قال الإمام مالك:

(من شتم أحدا من أصحاب النبيﷺ أبا بكر أو عمر أو عثمان أو معاوية أو عمرو بن العاص فإن قال كانوا على ضلال وكفر قتل وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس نكل نكالا شديدا)[1].

وقال أبو زرعة الرازي:

(إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول اللهﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أنّ الرسولﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول اللهﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة)[2].

أمّا من قذف السيدة عائشة أم المؤمنين بما برّأها الله منه، فإنّه كافر بالإجماع، لتكذيب القرآن الكريم في ذلك.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفىﷺ للقاضي عياض ٢/ ١٨٤، تحقيق: عبد السلام محمد أمين، الطبعة الثالثة ١٤٢٧-٢٠٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، ص٤٨، علق عليه: الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الأولى ١٤٢٧-٢٠٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

عقيدتنا بين الدليل القطعي والظني

هل تؤخذ العقيدة الإسلامية من آيات القرآن القطعية الثبوت والدلالة فقط؛ أم تؤخذ -أيضاً- من الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ؟

هذا الموضوع كثرت الكتابة فيه: فمنهم مَنْ ذهب إلى أن العقيدة الإسلامية لا تؤخذ إلا من آيات القرآن القطعية الثبوت والدلالة، ومنهم من ذهب إلى أن العقيدة تؤخذ -أيضاً- من الأحاديث الصحيحة. وقد استدلَّ كل من الطرفين بأدلة. ولا شك أن صاحب كل رأي من الرأيين كانت غايته خدمة العقيدة.

القول الأوّل:

ذهب بعض العلماء إلى أن العقيدة لا تؤخذ إلاَّ من أدلة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة معاً، لذلك صارت توجب العلم وتفيد التصديق الجازم. وقرر أصحاب هذا الرأي: أن الدراسة للآيات القرآنية، تهدي إلى أن القرآن الكريم قطعي الثبوت لا شك في ذلك، وأما دلالته، فبعض الآيات قطعية الدلالة، وبعضها الآخر ظنية الدلالة، وإذا كانت العقيدة لا تؤخذ إلا من دليل قطعي الثبوت والدلالة، فلأنَّ الظني في مدلوله اللغوي يعني إفادة الاحتمالين مع ترجيح أحدهما. فلا يجوز إذن الاستدلال بالدليل المحتمل لمعنيين أو أكثر. ويستأنس أصحاب هذا القول بالقاعدة الأصولية: (الدليل إذا طرقه الاحتمال، بطل به الاستدلال). ويستشهد أصحاب هذا القول بآيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة النجم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة النجم.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ سورة النساء.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة فصلت.

فهذه الآيات -وغيرها كثير- تنصُّ نصاً صريحاً في ذم مَنْ يتَّبع الظن في العقيدة، وهذا الذم يدل دلالة واضحة على النهي عن اتباع ما لم يقم الدليل القاطع عليه في أمر العقيدة.

وإذا كان الاستدلال بالدليل الظني لا يجوز في أمر العقيدة، فإن الأحكام الشرعية تختلف عن ذلك: فيجوز الاستدلال بالدليل الظني بها. كالاستدلال بأحاديث الآحاد.

وحين ينظر المتأمل في آيات سورة النجم التي ذكرناها، نجد أنها وردت في أمر العقيدة. ذلك أن المشركين كانوا يقولون: الملائكة والأصنام بنات الله؛ لذلك اتجه قسم من المشركين إلى عبادة الملائكة، واتجه بعضهم إلى عبادة

الأصنام. وهكذا نجد آيات سورة النجم تنعى على من يتبع الظن في أمر العقيدة -وهو الشك أو الخرص والتخمين- وهكذا (الظن) في آيات الظن الأخرى.

وكما نعى القرآن على مَنْ يتبع الظن، فإنه نعى -أيضاً- على كل عقيدة لا تستند إلى برهان أو سلطان. و(البرهان) و(السلطان) كلمتان تفيدان القطع والجزم، فلا يطلق واحد من هذين اللفظين على ما يحتمل الظن، وقد وردت آيات كثيرة في هذا المعنى، قال تعالى:

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ سورة المؤمنون.

وقال:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ سورة الأنبياء/ ٢٤.

وقال:

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ سورة الصافات.

وقال:

﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ سورة الأعراف/ ٧١.

والمتأمل في كل آية ورد فيها واحد من لفظي: (البرهان) و (السلطان)، يرى أنها جاءت بمعنى: الدليل القاطع.

وهكذا فإن الدليل في العقيدة لا يكون إلا قطعياً. ولا تتحقق قطعيته حتى

يكون آية من كتاب الله، وهذه الآية قطعية الدلالة أيضاً.

القول الثاني:

قرَّر أصحاب القول الثاني: أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين والأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله كانوا يفرِّقون بين ما ثبت بالمتواتر أو الآحاد في أمر العقيدة. وهناك كلام كثير للإمام (مالك) و(الشافعي) و(أحمد) و(داؤد الظاهري) و(ابن حزم) قرروا فيه: أن العقيدة تؤخذ –أيضاً– من الحديث الصحيح. وقد ذهب إلى هذا -أيضاً- (ابن تيمية) فقال:

(ومن الحديث الصحيح ما تلقّاه المسلمون بالقبول فعملوا به ... فهذا يفيد العلم، ونجزم بأنه صدق؛ لأنَّ الأُمة تلقته بالقبول تصديقاً وعملاً بموجبه، والأمة لا تجتمع على ضلالة)[1].

وقال الشوكاني:

(ولا نزاع في أن خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه؛ فإنه يفيد العلم؛ لأن الإجماع عليه قد صيَّرَه من المعلوم صدقه. وهكذا خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول، فكانوا بين عامل به ومتأول له. ومن هذا القسم أحاديث صحيحي البخاري ومسلم؛ فإن الأمة تلقت ما فيهما بالقبول...)[2].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٨/ ١٦.

(٢) إرشاد الفحول للشوكاني، ١/ ٤٩-٥٠، الطبعة الأولى، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦-١٩٣٧.

وممن ذهب إلى الاحتجاج بأحاديث الآحاد: البخاري، ومسلم، وأبو داؤد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، والطبراني، والدارمي وغيرهم. وقد روى هؤلاء الأعلام أحاديث في العقيدة، وهي من أحاديث الآحاد.

أما ابن قيم الجوزية، فقد ساق أكثر من عشرين دليلاً اثبت فيها أن حديث الآحاد يفيد اليقين، وذلك في كتابه (الصواعق المرسلة).

ويستطيع أصحاب هذا القول أن يوردوا مئات من أحاديث الآحاد في العقيدة، وهي من الأحاديث الصحيحة، فإن القول بعدم الأخذ بها يستلزم ردّها لا لشيء إلا لمجرد كونها وردت في العقيدة.

أما هؤلاء الذين لم يأخذوا بأحاديث الآحاد في العقيدة، فإنهم يقفون -ولا شك- موقفاً حرجاً في عدد كثير من الأحاديث الصحيحة التي وردت في العقيدة، وتلقاها العلماء بالقبول، منها على سبيل المثال:

١- شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أُمته.

٢- المعجزات الكثيرة التي ثبتت بأحاديث صحيحة.

٣- الأحاديث الكثيرة في الملائكة، والجن، والجنة، والنار.

٤- سؤال منكر ونكير.

٥- ضغطة القبر.

٦- الإيمان

٧- دخول سبعين ألفاً من أُمة محمد ﷺ الجنة بغير حساب.

٨- الأحاديث الصحيحة في صفة القيامة والحشر.

٩- أرواح الشهداء في حواصل طير خضر.

١٠- أحاديث نزول سيدنا عيسى عليه السلام، وخروج الدجال، وخروج دابة الأرض ..

وهناك أحاديث كثيرة لم نذكرها خشية الإطالة.

الترجيح:

إذا تأملنا في القول الأول، نرى أن القائلين به كانوا حريصين -كل الحرص- على بقاء العقيدة نقية سليمة. فهم يخشون أن تدخلها الشوائب التي تعكِّر صفوها، وتشوِّه شيئاً من حقيقتها. لكن الأدلة التي استندوا إليها لم تكن بقوة أدلة الفريق الثاني. هذا من ناحية. ومن ناحية أُخرى، فإن كثيراً من مسائل العقيدة التي دُوِّنت في كتب العقائد وتلقاها الناس بالقبول، ثبتت بأحاديث الآحاد، ولم تثبت بآيات قطعية الدلالة.

وإذا كان القول الثاني هو ما أميل إلى ترجيحه، فإن أصل المسألة تتعلق بالتكفير. فمن أنكر قطعي الثبوت: كالآيات الكريمة والأحاديث المتواترة فإنه يكفّر. ولا يكفَّر مَنْ أنكر حديثاً من أحاديث الآحاد.

وهكذا تكون أحاديث الآحاد الصحيحة مصدراً من مصادر العقيدة. والله أعلم.

أصول العقيدة الإسلامية وفروعها لدى علماء السلف ومن بعدهم

هناك مسائل تتعلق بأصول العقيدة الإسلامية اختلف فيها الصحابة الكرام، من ذلك اختلاف السيدة (عائشة) مع (ابن عباس) وغيره من الصحابة ﷺ في أنّ محمداً ﷺ هل رأى ربه ليلة المعراج أم لا؟

فذهبت السيدة عائشة إلى أنّ النبي الكريم لم يرَ ربّه وقالت:

((مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ))[1].

أما جمهور علماء الأمة، فقد ذهبوا إلى ما ذهب إليه (ابن عباس)، من أنه ﷺ رأى ربه.

ومع هذا الاختلاف في أصل من أصول العقيدة، فهم لا يُبدّعون ولا يُفسّقون الذين قالوا بقول (عائشة) رضي الله عنها.

وقد أنكرت (عائشة) رضي الله عنها -أيضاً- أن يكون الأموات يسمعون دعاء الأحياء، ولّما ذُكر لها حديث النبي ﷺ:

«مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»[2].

قالت: إنما قال: ((إِنَّهُمْ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ))[3].

فقد تأوّلت أم المؤمنين هذا الحديث. ولّما كانت هذه المسألة من المسائل

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: معنى قول الله ﷻ: [ولقد رآه نزلة أخرى]، حديث ٤٣٩ ص٩٠، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟).

(٢) رواه البخاري، وانظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٧/ ٣٠١.

(٣) رواه البخاري، وانظر: فتح الباري: ٧/ ٣٠١.

الاجتهادية، فقد ظلت العلاقة بين الصحابة قوية متينة، مع اختلاف وجهة أنظارهم في قضية مهمة من قضايا العقيدة؛ فلم يُفسِّق واحد منهم الآخر، ولم يقل بتبديعه. فهذا (الإمام ابن تيمية) رحمه الله قال في موضوع عدم المؤاخذة بالخطأ في أمور الاعتقاد:

((ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة– وإن كان ذلك في المسائل العلمية – ولولا ذلك، لهلك أكثر فضلاء الأمة. وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل، مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول ﷺ بحسب إمكانه، هو أحق بأن يتقبل الله حسناته، ويثيبه على اجتهاده، ولا يؤاخذه بما أخطأ، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾. وأهل السنة جزموا بالنجاة لكل من اتقى الله تعالى كما نطق به القرآن، وإنما توقفوا في شخص معين لعدم العلم بدخوله في المتقين))[1].

وقال:

((وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلاّ رسول الله ﷺ. وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يكفر ولا يفسق ولا يؤثم))[2].

هذا فيما يتعلق بأصل من أصول العقيدة.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٠/ ١٦٥-١٦٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ١٠٠.

وهناك مسائل ليست من أصول العقيدة الإسلامية في شيء، لكنها أُقحمت فيها، وتباينت تفسيرات العلماء في كل مسألة من مسائلها، وكان من أسباب ذلك الاختلاف: اجتهاد العلماء في فهم قسم من النصوص الشرعية: كاختلافهم في جواز التوسل بجاه النبي ﷺ: فإن من العلماء من أجازه؛ مستدلاً بحديث عثمان بن حنيف: ((أَنَّ رَجُلا ضَرِيرَ الْبَصَرِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللهَّ أَنْ يُعَافِيَنِي. قَالَ: إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قَالَ فَادْعُهْ. قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءهُ، وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي لِتُقْضَى حَاجَتِي، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ**». قال: ففعل الرجل فبرأ))[1].

فهذا الحديث الشريف يفهم منه جواز التوسل بجاه النبي ﷺ.

وهناك من العلماء من منعَ الدعاء بالجاه؛ مستدلاً بعدم توسل الصحابة بالنبي ﷺ بعد موته أولاً، وبما رواه أنس بن مالك ﷺ: ((أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ فَقَالَ: [اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا]، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ))[2].

ويفهم من هذا الحديث أن الصحابة ما كانوا يدعون بالجاه.

---

(١) رواه الإمام أحمد: ٤/١٣٨، والترمذي برقم ٣٥٧٨ في كتاب الدعوات (باب: ١١٩) وقال حديث حسن صحيح، وصححه صاحب صحيح الجامع الصغير برقم ١٢٩٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء (باب: سؤال الناس الامام الاستسقاء اذا قحطوا). انظر البخاري مع الفتح حديث ١٠١٠ الطبعة الثالثة دار السلام ودار الفيحاء.

وكذلك اختلف العلماء في مسألة شدّ الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ. وسبب اختلافهم تباين فهمهم لحديث النبي ﷺ: «**لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاّ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[1].

فمنعه بعضهم أخذاً من عموم المستثنى منه فقالوا: يحرم شدّ الرحال إلى هدف ديني إلاّ إلى هذه المساجد الثلاثة، وأجازه بعضهم مفسراً الحديث بتلك الفضيلة التامة في شدّ الرحال إلى هذه المساجد الثلاثة: أما شدّ الرحال إلى غيرها فإنه لا يحرم. فكأن النبي ﷺ أراد أن يبيّن الفضيلة الكبيرة في شدّ الرحال إلى المساجد الثلاثة دون سواها[2].

وعند التأمل في هذه القضية، نرى أن الخلاف فيها هو خلاف فرعي قابل للاجتهاد في فهم النصوص، والمصيب فيها له أجران، والمخطئ له أجر واحد، ولا يترتب على المخطئ في الاجتهاد تفسيق ولا تكفير. فلا يجوز الحكم على المخالفين بالشرك والضلال والابتداع.

وإني إذ أتحدث هذا الحديث، مستشهداً على ما ذهب إليه كل من الفريقين، لا أريد أن أرجح بين أقوالهم، لكني أردت الإشارة إلى روح التسامح التي كان عليها سلف الأمة رضي الله عنهم أجمعين!.

ويعجبني في هذا ما ذكره (الإمام الذهبي) في ترجمة (محمد بن نصر

---

(١) رواه البخاري برقم ١١٨٩ في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (باب:١)، ومسلم برقم ٨٢٧ في كتاب الحج (باب:٧٤).

(٢) لزيادة الاطلاع انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٦٣-٦٨.

المروزي) إذ تحدث المروزي حديثاً في العقيدة لم يرضه علماء عصره، فخالفه أئمة (خراسان) و(العراق)، وهجره العلماء المعاصرون له. ولم يرضَ الإمام الذهبي منهم هذا الموقف، فقد قال:

((ولو أنّا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قمنا عليه وبدّعناه وهجرناه، لما سلم لنا لا ابن نصر، ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين. فنعوذ بالله من الهوى والفضاضة))[1].

وقال في ترجمة (محمد بن إسحق بن خزيمة):

((وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأوّل في ذلك حديث الصورة[2]؛ فليعذر من تأول بعض الصفات. وأما السلف، فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفوا، وفوّضوا علم ذلك إلى الله ورسوله. ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده – مع صحة إيمانه وتوخيه الحق– أهدرناه وبدّعناه، لقلّ من يسلم من الأئمة معنا. رحم الله الجميع بمنِّه وكرمه))[3].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله– في معرفة فضل الأئمة:

((... وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول ﷺ، فقالوا بمبلغ علمهم والحق في خلافها، لا يوجب اطِّراح أقوالهم

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي: ١٤/ ٣٩-٤٠.
(٢) يشير إلى حديث: ((خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، وطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ...)).
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٣٧٤-٣٧٦.

جملة، وتنقصهم، والوقيعة فيهم ... ومن له علم بالشرع والواقع، يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده. فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين))[1].

مسألة التأويل:

ومما يتصل بهذا الأمر: قضية تأويل قسم من آيات الصفات التي كثر الكلام فيها قديماً وحديثاً. وحين نتأمل في هذه القضية، نرى أن الذين ذهبوا إلى القول به علماء أعلام هم قرة عين الدنيا –بحق– منهم: (الإمام النووي) و(ابن الجوزي) و(ابن عقيل) و(العز ابن عبد السلام) و(ابن حجر) ... وغير هؤلاء كثير. ولا ريب أن وصف هؤلاء الأعلام وأمثالهم بالضلال والتعطيل أمر لا يقره إنسان منصف، ولا يسوغ ذلك شرعاً.

وكما لا يسوغ وصف هؤلاء بهذه الأوصاف، لا يسوغ –أيضاً– وصف الأئمة الذين أجروا نصوص آيات الصفات على ظاهرها بالضلال والتشبيه والتجسيم (كابن تيمية) و(ابن قيم الجوزية) و(ابن قدامة المقدسي) ... وحين ننظر إلى مفسّري القرآن الحكيم، نرى أنهم نهجوا هذا النهج في تأويل آيات الصفات (كابن جرير الطبري)، و(ابن كثير) وغيرهما من أئمة أهل السنة..!

---

(١) أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية: ٣/ ٣٥٣-٣٥٤، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

وما أروع النهج الذي سلكه (الإمام ابن تيمية) رحمه الله، فقد كان منصفاً -بحق- عُرف بالسماحة والرحمة وسعة الأفق: فلم يُضَلِّل أحداً منهم، ولم يُبدِّعهم، ولم يفسقهم، وكل ما قاله في مخالفيه: إنهم جانبوا الصواب، أو أخطأوا.

إن (ابن تيمية) ومدرسته هم مفخرة كل مسلم منصف. فعلينا أن نعرف لهؤلاء وأولئك مكانتهم، ونقتدي بهم في تقواهم، وأخلاقهم وعلمهم، ونفعل مثلما فعلوا ...!

قضية التكفير:

ويتسرع قسم من الناس، فيكفر هذا وذاك؛ لمجرد اختلافه معه في قضية من القضايا المتعلقة بفروع العقيدة التي اختلف فيها العلماء قديماً وحديثاً. وتلك جريمة كبرى يرتكبها المسلم بحق أخيه المسلم؛ إذ إن تكفير المسلم، يعني إخراجه من ملة الإسلام، وجعله مرتداً. ويترتب على هذا: التفريق بينه وبين زوجته وأولاده، وقتله كفراً -إن لم يتب- لدى جمهور الفقهاء.

ابن تيمية وقضية التكفير:

ويبدو أن قضية تكفير المسلمين رفعت رأسها في عصر الإمام ابن تيمية، الأمر الذي جعله يصدر عددا ليس بالقليل من الفتاوى، يفند فيها تلك الظاهرة الخطيرة، مستدلاً بما كان عليه الصحابة الكرام وجماهير علماء المسلمين فقد كانوا أبعد مايكونون عن تكفير الناس إذا أخطأوا حتى لو كان الخطأ في العقيدة، ملتمسين الأعذار لمن اجتهدوا اجتهادات جانبوا فيها الصواب. وقد

عالج هذه القضية الإمام ابن تيمية فقال:

(الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ، فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان.. سواء أكان في المسائل النظرية، أو العملية هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أمة الإسلام...)[1].

وقال-أيضاً-:

(وليس كل من خالف في شئ من هذا الإعتقاد يجب أن يكون هالكاً؛ فإن المنازع قد يكون مجتهداً مخطئاً يغفر الله خطأه، وقد لايكون بلغه في ذلك من العلم ماتقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات مايمحو الله به سيئآته. وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لايجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى)[2].

وإذا تأملنا في هذه القضية بإنعام نظر، رأينا حوادث كثيرة وقعت في عهد الصحابة الكرام، بل وفي عهد النبيﷺ، ومع ذلك لم يكفر النبي ولا الصحابة واحدا من هؤلاء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وقد كان على عهد رسول اللهﷺ طائفة أكلوا بعد طلوع الفجر حتى تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ولم يؤثمهم النبيﷺ، فضلاً عن

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ٣٤٦.

(٢)مجموع الفتاوى ٣/ ١٧٩.

تكفيرهم، وخطؤهم قطعي. وكذلك أسامة بن زيد قتل الرجل المسلم وكان خطؤه قطعياً، وكذلك الذين وجدوا رجلاً في غنمٍ له فقال: إني مسلم فقتلوه وأخذوا ماله كان خطؤهم قطعياً وكذلك خالد بن الوليد قتل بني جُذيمة وأخذ أموالهم كان مخطئاً قطعاً... وقد زنت على عهد عمر امرأة، فلما أقرت به قال عثمان: إنها لتستهِلُ استهلال من لا يعلم أنه حرام. فلما تبين للصحابة أنها لا تعرف التحريم لم يحُدُّوها! واستحلال الزنا خطأٌ قطعاً...)[1].

ويقول:

(والخوارج المارقون الذين أمر النبيﷺبقتالهم[2] قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقَّاص وغيرهما من الصحابة بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفَّار؛ ولهذا لم يسبِ حريمهم ولم يغنم أموالهم).

(وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسولهﷺ، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٠٩-٢١٠ وانظر: منهاج السُّنَّة ٥/ ٨٥-.

(٢)إشارة لقولهﷺ **«...فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة»** رواه البخاري في كتاب المناقب (باب:علامات النبوة)٦/ ٦١٨، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: التحريض على قتال الخوارج) ٢/ ٧٤٧، وأبو داؤد في كتاب السنة (باب: في قتال الخوارج)٥/ ١٢٤.

غلط فيها من هو أعلم منهم!؟ فلا يحلُّ لإحدى هذه الطوائف أن تكفر الأخرى، ولا تستحل دمها ومالها وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضاً؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق مايختلفون فيه)[1]

ويقول:

(فإن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين وقد اتفق اهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لايجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأٍ أخطأه يكفر ولايفسق، بل ولا يأثم؛ فإن الله تعالى قال في دعاء المؤمنين ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ وفي الصحيح عن النبيﷺ :(إن الله تعالى قال: قد فعلت))[2].

أبو حامد الغزّالي وقضية تكفير المسلم:

ونجد موقف حجة الإسلام أبي حامد الغزالي من قضية تكفير المسلم موقفاً حاسماً: فهو يرد على من يقوم بالتكفير، ويأتي بالأدلة النقلية والعقلية التي تحرمه، ويصرِّح أن الجهلة هم الذين يبادرون إليه فيقول:

---

(١) قاعدة لجمع كلمة المسلمين لابن تيمية ص١٥-١٦ تحقيق حمَّاد سلامة. الناشر: مكتبة المنار. الأردن. الزرقاء.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٥/ ٦٤-٦٥ بتحقيق خيري سعيد / الناشر: المكتبة التوفيقية / القاهرة.

(التكفير حكم شرعي يرجع الى إباحة المال، وسفك الدم، والحكم في الخلود في النار...والمبادرة الى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل)[1]

ويدعو الغزالي المسلم أن يحترز عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً فيقول:

(والذي ينبغي أن يميل المحصّل اليه: الإحتراز من التكفير ما وجد اليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين الى القبلة، المصرحين بقول:[لا إله إلا الله محمد رسول الله] خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم)[2].

ويقول الإمام الغزالي-أيضاً-:

(إعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألةٍ واحدة: وهي أن ينكر أصلاً دينياً علم من الرسول ﷺ بالتواتر)[3]

وإذا كان الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي المجمع عليه الذي لا تجوز مخالفته، ومنكره كافر خارج عن ملة المسلمين كما يقول علماء الأصول، فإن الإمام الغزالي يفرق بين من خالف الإجماع لعدم ثبوته عنده وبين المكذب له: فمن خالف الإجماع ولم يثبت عنده بعد، فهو

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالي ص١٩٧ تحقيق الدكتور سليمان دنيا الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م. دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي.

(٢)الإقتصاد في الإعتقاد للإمام أبي حامد الغزالي ص١١٢. الطبعة الأولى، مطبعة حجازي/ القاهرة.

(٣) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي ص١٩٥.

جاهل مخطئ لا يجوز تكفيره وأما المكذب له فيكفر فيقول:

(وقد صنف أبو بكر الفارسي -رحمه الله- كتاباً في مسائل الإجماع، وأنكر عليه كثير منه، وخولف في بعض تلك المسائل. فإذن من خالف الإجماع، ولم يثبت عنده بعد، فهو جاهل مخطئ وليس بمكذب، فلا يمكن تكفيره)[1].

ايها المسلم إياك والتكفير:

وعلى المتسرع في التكفير أن يتذكر حديث النبيﷺ:

«مَنْ صَلَّى صَلاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فهو الْمُسْلِمُ: لَهُ ما لنا، وعليه ما علينا»[2].

وقوله:

«إذا قَالَ الرجل لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِه أَحَدُهُمَا: فإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ»[3].

وقوله:

«... وَمَنْ دَعَا رَجُلا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ:عَدُوَّ اللهِّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلاّ حَارَ عَلَيْهِ»[4].

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي٢٠٠.

(٢) رواه البخاري، انظر: فتح الباري: ١/ ٤٩٦، المطبعة السلفية.

(٣) رواه البخاري، انظر: فتح الباري: ١٠/ ٥١٤/ ومسلم: ١/ ٧٩، طبعة الحلبي.

(٤) رواه مسلم ١/ ٨٠ طبعة الحلبي.

قالوا في تكفير المسلم:

ولايظنن أحد أن هذا هو رأي الإمامين ابن تيمية والغزالي وحدهما، بل هو رأي علماء المسلمين في كل عصر من العصور فهذا الإمام ابن قيِّم الجوزية يقول:

(من الكبائر تكفير من لم يكفره الله ورسوله)[1]

ويقول الشوكاني:

(اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن من قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، هكذا في الصحيح، وفي لفظ آخر في الصحيحين وغيرهما: (من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدوّ الله وليس كذلك إلا حار عليه) أي رجع، وفي لفظ في الصحيح: (فقد كفر أحدهما)، ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير)[2]

وما أجمل ما قاله ابن عساكر:

(إعلم - يا أخي- وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار

---

(١)إعلام الموقعين لإبن قيم الجوزية: ٤/ ٥٠٠، تحقيق وضبط عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة القاهرة.

(٢) السيل الجرار للشوكاني ٤/ ٥٧٨، فصل والردة باعتقاد أو فعل أو زي أو لفظ كفري.

منتقصيهم معلومة؛ لان الوقيعة فيهم - بما هم منه براء- امر عظيم، والتناول لاعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاق على من اختاره الله منهم لنعش العلم خلق ذميم.. والارتكاب لنهي النبي ﷺ عن الاغتياب وسب الأموات جسيم ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾)[1].

أي أن من يسئ إلى العلماء ويشوه من سيرتهم، يكون قد عرّض نفسه للهلاك، كالذي يتحسى السم؛ فإنه يهلك نفسه ولا ريب.

العقيدة الإسلامية ضرورة:

وأختم حديثي بما يأتي:

يشعر المسلم بالسعادة الحقيقية حين يعتقد العقيدة الصحيحة، ويؤمن بها إيمانا خالصا لا شك فيه ولا ريب. أمّا غيره فيظلّ تائها حائرا يتخبط في دياجير الظلام؛ إذ لم يعرف الموجد الحقيقي لهذا الكون، ولم يدر لماذا خلق الله الإنسان، وما مصير الإنسان بعد الموت، وهل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة؟؟؟.

وهناك أسئلة كثيرة أخرى لا يستطيع غير المسلم صاحب العقيدة الصحيحة أن يجيب عنها إجابة مقنعة.

لهذا ولغيره من الأسباب، تجد المسلم هادئ النفس، مرتاح الضمير، بعيدا عن الأمراض النفسية التي عملت عملها، وفتكت فتكها في مجتمعات غير

(١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر: ص ٣٦، قدم له وعلق عليه: محمد زاهد الكوثري الطبعة الأولى ١٤٢٠- ١٩٩٩، المكتبة الأزهرية ومكتبة الجزيرة، القاهرة.

المسلمين -وبخاصة المجتمعات الغربية- لأنّ المسلم يؤمن تمام الإيمان عن علم وبرهان: أنّ وراء هذه الحياة حياة أخرى هي حياة الجزاء، يثيب الله فيها الطائعين الملتزمين بشرعه الشريف، ويعذب العاصين الذين لم ينهجوا نهجه القويم، ولا صراطه المستقيم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ابراهيم النعمة

المحتـوى

الموضوع	الصفحة
مقدمـة	٥
علم التوحيد أو العقيدة الإسلامية	٨
اسماء علم العقيدة	٨
متى ظهر مصطلح العقيدة	١٠
موضوع علم العقيدة	١١
ماذا يبحث علم التوحيد	١٢
عقيدتنا بين الكتاب والسنة والفلسفة	١٢
منهجان في دراسة العقيدة الإسلامية	١٣
حكمه	١٦
الإسلام	١٨
التوحيد دين الأنبياء والرسل جميعا	١٩
شرائع الأنبياء والرسل متغيرة	١٩
الإيمان بالله	٢١
وجود الله قضية فطرية	٢١
حول فساد الفطرة	٢٢
بين الفطرة السليمة والشرائع والعبادات الإلهة	٢٣
عالم الغيب والشهادة	٢٤

الإيمان بالغيب ٢٥
العقل والغيب ٢٧
حدوث الكون ووجود الله ٢٨
العليم الحكيم..... ٣٣
الملاحدة ورؤية الله في الدنيا ٣٤
التفكير في ذات الله ٣٥
معنى الشهادتين ٣٧
شروط كلمة الشهادة..... ٣٩
توحيد العبادة ٤٠
الاستعانة بالله وحده ٤١
الاستغاثة..... ٤٣
شروط الإيمان ٤٥
الإيمان والعمل ٤٦
بين الإسلام والإيمان..... ٥١
زيادة الإيمان ونقصه..... ٥٦
بماذا يزيد الإيمان ٥٨
توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ٥٩
الشرك..... ٦١
أسباب الشرك ٦٥
أنواع الشرك ٦٩

من آثار الشرك ٧٣
الكفر ٧٤
تكفير من سبّ الله تعالى ٧٨
تكفير من سبّ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ٧٨
الكافر وقبول عمله ٧٨
الفسق ٧٩
الظلم ٨١
الردة ٨٣
النفاق ٨٣
تكفير المسلم ٨٦
نواقض الإيمان ٨٦
من ثمرات الإيمان بالله ٨٩
الإيمان بالملائكة ٩١
الإيمان بالملائكة تفصيلي وإجمالي ٩١
كيف خلقت الملائكة ٩٤
خلقت الملائكة قبل آدم ٩٤
عدد الملائكة ٩٥
سفير الرسل والأنبياء ٩٥
قدرة الملائكة ٩٦
مراتب الملائكة ٩٧

أعمال الملائكة ٩٩
رؤية الملائكة ٩٩
من ثمرات الإيمان بالملائكة ١٠٠
الجن ١٠١
الشياطين ١٠٤
الإيمان بالكتب ١٠٦
القرآن الكريم ١٠٧
حفظ الله للقرآن الكريم ١٠٨
مقتضى الإيمان بالقرآن ١١١
التوراة ١١١
هل للتوراة سند متصل ١١٢
الإنجيل ١١٥
هل للأناجيل سند متصل ١١٦
إنجيل برنابا ١١٧
الزبور ١١٩
صحف إبراهيم وموسى ١١٩
القرآن نسخ الكتب السماوية كلها ١٢٠
من ثمرات الإيمان بكتب الله ١٢١
الإيمان بالرسل ١٢٢
لماذا تعددت الأنبياء والرسل ١٢٢

عدد الأنبياء والرسل ١٢٣
أولو العزم من الرسل ١٢٥
تفاضل الأنبياء والرسل ١٢٦
هؤلاء اختلف في نبوتهم ١٢٨
ما يجب في حق الرسل ١٢٩
الإيمان بالرسل لا يقبل التبعيض ١٣٤
الرسول بشر ١٣٥
ما يجب على الأمة مما يتعلق بالأنبياء والرسل ١٣٥
الحكمة من إرسال الرسل ١٣٨
ختم النبوة ١٣٩
بعثة النبي محمد ﷺ ١٤٠
تغيير للبشارات ١٤٢
المعجزات ١٤٧
من ثمرات الإيمان بأنبياء الله ورسله ١٤٨
إعجاز القرآن ١٤٩
الموت ١٦٠
بقاء الروح وإدراكها بعد الموت ١٦٠
الحياة البرزخية ١٦٣
ضغطة القبر ١٦٤

عذاب القبر ونعيمه ١٦٥
الرسول يسمع أصوات المعذبين ١٦٦
مثل عذاب القبر ونعيمه..... ١٦٨
الموت نقلة ١٦٨
الإيمان باليوم الآخر..... ١٧٠
الساعة ١٧١
أشراط الساعة ١٧١
الصور ١٧٣
البعث ١٧٤
مثل إعادة خلق الإنسان من جديد..... ١٧٦
الحشر ١٧٦
العرض..... ١٧٧
الحساب ١٧٩
نشر صحائف الأعمال..... ١٨٠
الميزان ١٨١
الصراط ١٨٣
القنطرة بين الجنة والنار ١٨٥
الحوض ١٨٥
الأعراف ١٨٧
الشفاعة ١٨٧

مراتب الشفاعة ١٩٠
للشفاعة شرطان ١٩٠
الغرور بالشفاعة ١٩١
الجنة ١٩١
النار ١٩٣
من ثمرات الإيمان باليوم الآخر ١٩٤
الإيمان بالقضاء والقدر ١٩٦
الإنسان مجبر ١٩٧
حرية الإرادة ١٩٧
مع الضالين والعصاة ١٩٩
شبهة ساقطة ٢٠٠
هل يرد القضاء ٢٠٢
هل يدفع القدر ٢٠٣
التوكل وعقيدة القضاء والقدر ٢٠٤
لماذا الإيمان بالقدر ٢٠٦
من ثمرات الإيمان بالقدر ٢١٠
كلمات حاسمة ٢١٢
الكرامات ٢١٢
الأولياء ٢١٤
العلم الباطن ٢١٦

القبور وزيارتها ٢١٦
الإيمان بالوعد والوعيد..... ٢١٨
الصحابة الكرام..... ٢١٨
حول سب الصحابة..... ٢٢٢
عقيدتنا بين الدليل القطعي والظني ٢٢٥
القول الأول ٢٢٥
القول الثاني..... ٢٢٨
الترجيح ٢٣٠
أصول العقيدة الإسلامية وفروعها لدى علماء السلف ٢٣١
مسألة التأويل..... ٢٣٦
قضية التكفير ٢٣٧
ابن تيمية وقضية التكفير ٢٣٧
ابو حامد الغزالي وقضية تكفير المسلم..... ٢٤٠
ايها المسلم اياك والتكفير ٢٤٢
قالوا في تكفير المسلم ٢٤٣
العقيدة الإسلامية ضرورة ٢٤٤